الصراع على الهوية

الطريق إلى الحرية

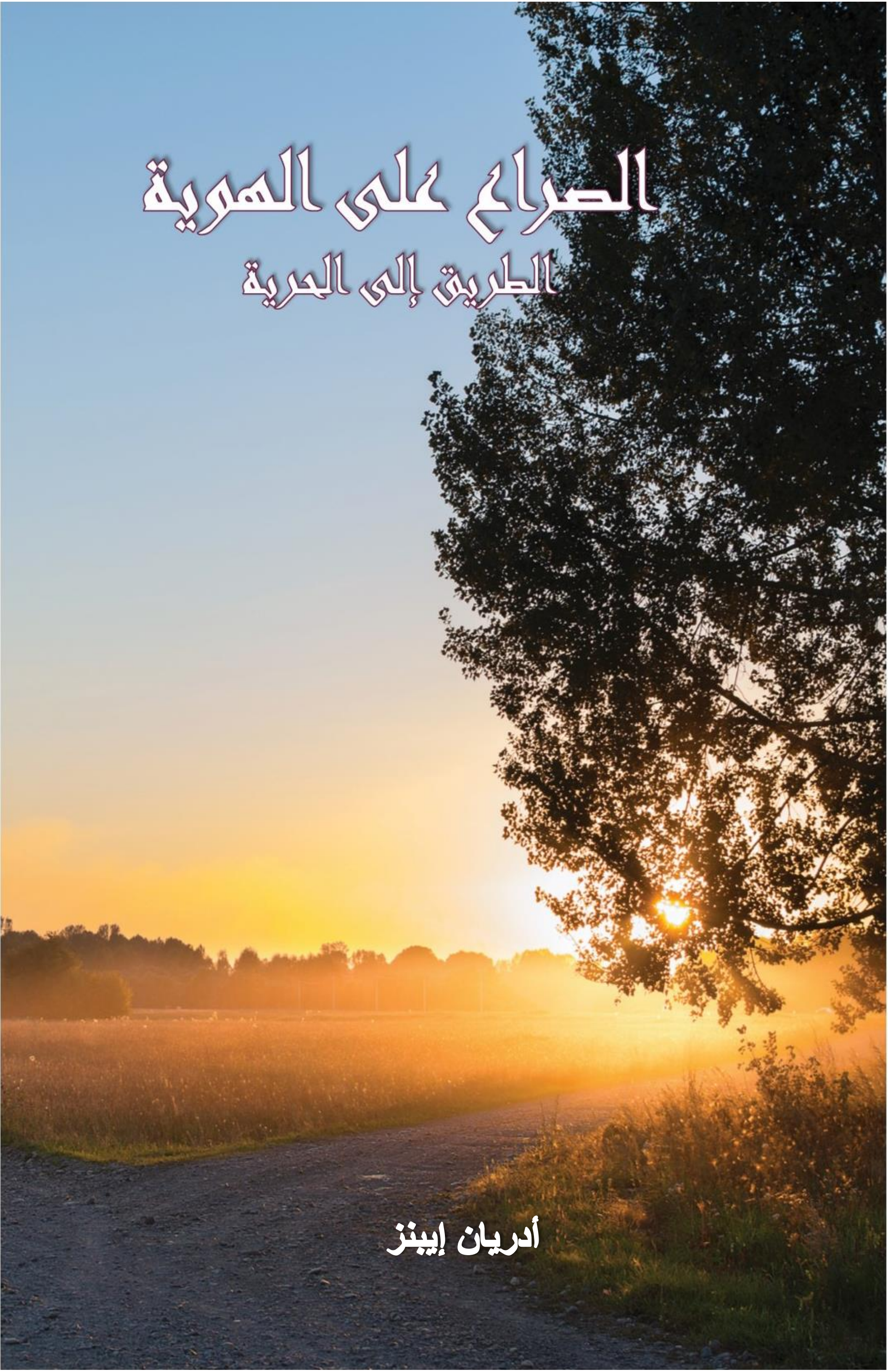

أدريان إيبنز

الصراع على الهوية

أدريان إيبنز

حقوق النسخ والطبع محفوظة 2018 أدريان إيبنز
نسخة محدّثة ISBN-13: 978-1-57258-668-0
Library of Congress Control Number: 2011903965

دوراسيل هي شركة أمريكية تنتج البطاريات، تملكها شركة بروكتر وغامبل، وهي شركة مسجّلة في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان. يُرجى الملاحظة أن أية إشارة إلى شركة دوراسيل في هذا الكتاب هي لأغراض توضيحية فقط، وليست لأية أغراض تسويقية أو تجارية لهذه الشركة أو للشركة الأم بروكتر وغامبل.

جميع الآيات الواردة في هذا الكتاب مقتبسة من الترجمة العربية الحالية (فان دايك) مالم يذكر خلاف ذلك

تمت الطباعة في أستراليا بواسطة شركة ماران آثا للإنتاج الإعلامي
Fatheroflove.info
adrian@identitywars.org

المحتويات

القسم الأول: المملكتان – فقدان الهوية 5

1. شجرة الدوراسيل 5
2. ينبوع الحياة.. 10
3. بالقرب من قلب الله 17
4. مملكة العائلة.. 20
5. الأزمة العائلية.. 23
6. جحيم على الأرض 27
7. السماء شريان الحياة.. 33
8. مقارنة بين المملكتين 37
9. قلب بابل.. 41

القسم الثاني: مصيرٌ واحدٌ – الهوية المُستردة.. 46

10. تحطيم قيود الدوراسيل.. 46
11. فتح أبواب السماء 52

القسم الثالث: رحلة العودة إلى البنوة 56

12. الحياة المدعومة بواسطة الدوراسيل.. 56
13. دَرَجٌ (سُلَّمٌ) إلى السماء.. 60
14. الآلهة ذاتها – أسماء مختلفة 64
15. كيف تقرأ؟ 70
16. ليس عبداً فيما بعد 73
17. سقوط بابل 76

أهدي هذا الكتاب إلى

والدي العزيز هابيل،

الذي علمني أن أقف شامخاً وأكون صادقاً على
الدوام، وأن أنهي ما بدأته وألا أتساهل أبداً مع
الظلم،

وإلى والدتي العزيزة إيفلين، التي علمتني أن أظل أحلم
وأكون خلّاقاً وسخيّاً وأن أحب الطبيعة،

وإلى أختي العزيزة كارين، التي شاركتني رحلة الطفولة،
وكثيراً ما أضحكتني بدعابتها وخِفَّةُ روحها

القسم الأول: المملكتان – فقدان الهوية

1. شجرة الدوراسيل

دوراسيل هو اسم بطارية تُصنع في الدول الغربية. وقد استخدم الكاتب هذا التعبير ليشير إلى كذبة الحياة أو الإتكال على ذاتك في الحياة بمعزل عن الله. – المترجم

كانت الإضاءة في الغرفة خافتة. وعلى أحد الجدران كان هناك عدد من الملصقات وصورة لأحد عازفي موسيقي البوب، وأخرى لأحد الرياضيين الذي كان قد اشتهر في العديد من الإعلانات. وعلى طول الجدار الآخر كان هناك مكتب فوقه بعض الكتب المدرسية القليلة. أما الميزة الأساسية لهذا المكتب فكانت في أنه يتضمن جهاز ستريو صغير ولكنه قوى. ما من شك إذاً ،أنها كانت غرفة لشخص في سن المراهقة إذ أن الغرفة هذه عكست كافة علامات الاضطراب والطموح إلى جانب التخيل والأحلام.

دارت معركة هائلة بين جنبات قلبي، معركة مصيرية لتقرير لحظة الحقيقة. ووجدت نفسي أتمتم وأنا أحدّق في الأرض: "ما كنت أظن أبداً أنني سأفعل شيئاً مثل هذا". إن مفهومي لذاتي، كان يجتاز في اختبارقاسٍ. وكانت المعركة المستمرة بداخلي من الشدة بحيث أنني سعيت لايجاد الراحة في هذه الملصقات التي كثيراً ما ساعدتني من قبل لصرف ذهني بعيداً عن الحصاد الذي كنت أجنيه الآن.

كان الجو مُحَمّلاً بشعور من اليأس بينما راح ذهني يسعى لاستيعاب بعض الملامح لتهدئة حالتي المضطربة. وبعض هذه الملامح التي سعيت صوبها كانت في المجال الرياضي والأكاديمي . وبعضها كانت واضحة. ولكنها الآن بدت عاجزة تماماً عن أن تساعدني. فغشيت نفسي غيمة قاتمة بدأت تُفرِغني من كل إحساس بالطموح. بل وقد طرقت حتى باب قلبي لتسلبني أثمن كنوزي الأدبية. وما اكتفت بذلك بل حاولت انتزاع الرجاء مني والذي هو أثمن وأقدس ما عندي.

وكنت قد تحدثت إلى والدتي بطريقة، وعَدّتُ نفسي ألا أكررها أبداً بعد ذلك. وتلك كانت القشة الأخيرة التي جعلتني أدرك بأنني لم أكن ذلك الشخص الذي أردت أن أكون عليه. لم أحب نفسي وأردت التغيير. ولكن الأمر بدا ميؤوساً منه.

* * *

<u>الكآبة:</u> الكآبة أو الاكتئاب هي أكبر لعنة تصيب مجتمعنا اليوم. ولذلك فمنظمة الصحة العالمية تقول:

> إن الكآبة هي السبب الرئيسي للإعاقة وتدهور الصحة على مستوى العالم. فأكثر من 300 مليون شخص يعانون الآن من هذا المرض، وذلك بنسبة زيادة تبلغ أكثر من 18 بالمئة بين الأعوام 2005 و2015.[1]

ولنحاول الآن فهم ضخامة هذه المشكلة من خلال الإحصاءات التالية المأخوذة من سنة 2011:

- مليون حالة انتحار كل سنة، أي حالة وفاة كل 40 ثانية أو 3000 حالة وفاة في اليوم.
- في مقابل كل شخص يلقى حتفه بسبب الانتحار يوجد على الأقل 20 شخصاً آخرين يحاولون الانتحار، أي 60 ألف محاولة انتحار في اليوم.
- ارتفع معدل الانتحار على مستوى العالم بنسبة 60 بالمئة خلال العقود الخمسة الماضية، خاصةً في البلدان الصناعية.
- 60 بالمئة من إجمالي حالات الانتحار تحدث في القارة الأسيوية، ووفقًا لإحصاءات منظمة الصحة العالمية، فإن حوالي 40 بالمئة من إجمالي حالات الانتحار تقع في الصين والهند واليابان.[2]

فما الذي يحدث في العالم ؟ وما الذي يجعل الناس هكذا يائسين من الحياة بحيث يقرر الملايين منهم الموت على مواصلة يوم آخر؟

في كتاب بقلم "فيليب داي" بعنوان: "The mind Game"، يقدم لنا المؤلف هذه العبارة التي تكشف لنا عن بعض الحقائق:

> "في العصور الغابرة كان أفراد العائلات المراعية يجتمعون سوياً وكل عائلة تقدم لمن أصيب بين أفرادها بالكآبة واليأس، التشجيع والرعاية وتحثه بمحبة على أن يتحدث بما في قلبه ويشارك ما يضايقه مع باقي أفراد العائلة المجتمعين حوله... أما اليوم، إذ تفككت الوحدة العائلية وانقسم تلاحم الأسرة وتدهورت الديانة وانحطت، وانفصل أفراد العائلة عن بعضهم البعض في خضم وتيرة القرن الحادي والعشرين المتسارعة، والنمط الحياتي المندفع، فإن الأطباء والمحللون النفسانيون هم الذين تولوا مهمة تقديم التشجيع والمشورة، تلك

---

[1] https://www.who.int/health-topics/depression#tab=tab_1
[2] https://www.medicalnewstoday.com/articles/234219

المهمة التي كان يضطلع بها قبلاً الأهل والأقارب أو قسيس الجيرة. وأعتقد اعتقاداً قوياً أن هذا كان له تأثير ضار على مجتمعنا".[3]

يُدرِج المؤلف "فيليب داي" ثلاثة عوامل: (1) تفتت وحدة العائلة، (2) تدهور الديانة وتشوه سمعتها، (3) انفصال معظم العائلات بعضها عن بعض في خضم وتيرة الحياة المتسارعة للقرن الحادي والعشرين. العامل المحوري هو تفتت وحدة العائلة. وقد علق الكاتب "دافيد فان بيما" على هذا الموضوع بالقول:

"إنه لجيل يختلف عن غيره من الأجيال. جيل قد هَرِم وشاخ. وملايين الناس المعاصرين له، قد سادهم الحزن العميق المبكر. إنهم أبناء الطلاق ويشكلون مقدمة لفيلق طويل لا تبدو له نهاية ممن هم على شاكلتهم". [4]

ويشرح "جيم كونواي" وبتفصيل واضح، في كتابه "الأطفال البالغون لطلاق قانوني وعاطفي" أو (*Adult Children of Legal and Emotional Divorce*)، الألم والخسارة والمعاناة التي يجتاز فيها آلاف الأشخاص الذين اختبروا التأثير الضار لعائلات تفككت إما عاطفياً أو قانونياً. وإحدى السِمَات الرئيسة التي يصفها هي انعدام الشعور بالأمان. والأسئلة المستمرة التي يطرحها الأطفال في مثل هذه العائلات المفككة: " من أنا؟ "، " وهل أستحق أن يحبني الناس؟"

هذه الأسئلة تضرب على أصل ومصدر المأساة البشرية والمتمثلة في الشعور بعدم الأهمية. هل يهتم بي حقاً أي شخص؟ هل أنا أساوي أي شيء على الإطلاق؟ فكيف وجَدَت مثل هذه الأسئلة طريقها إلى العقل البشري؟ للإجابة على هذا السؤال يلزمنا العودة إلى البدء.

وجَدَت حواء نفسها فجأة تقف أمام الشجرة المحرَّمة وقد دارت في رأسها التساؤلات: "لماذا حرَّم الله علينا الأكل من هذه الشجرة؟" لقد بدت ثمرتها جذابة وشهية. وبينما هي تتأمل في جمالها ولونها، سمعت فجأة صوتاً يصدر من وسط فروع الشجرة. لقد وجد الشيطان فرصته التي انتظرها طويلاً. فجربها من خلال الحية قائلاً: "أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟" (تكوين 3 : 1). وكان الشيطان بذلك يُحرّض حواء على الدخول في مناقشة ليزرع في عقلها الشك بخصوص حرفية نهي الله. أما فيما يختص بمجال النقاش والمنطق، فإن حواء لا تستطيع أن تقارع الشيطان. أضف إلى ذلك ما للشيطان من أسلحة غير مألوفة من الخداع والمراوغة والظلام. وبالتالي فإن المناظرة ستكون قصيرة ومدمرة إذا أظهرت حواء أقل استعداد للدخول فيها من خلال فتح فمها والتفوه بأي كلمة.

وبالفعل فتحت حواء فمها وقالت: "من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا" (تكوين 3 : 2 و3). قبلت حواء التحدي بتكرار ما قاله لها الله. ولكنها الآن وقعت في ورطة عويصة. فحب استطلاعها الممزوج بالتحدي الاستهلالي الذي واجهها به الشيطان، جعلها غير متأهبة للعبارة المذهلة التي أسرع الشيطان ونطق بها: "لن تموتا" (تكوين 3 : 4).

---

[3] Phillip Day, Introduction - http://www.campaignfortruth.com/Eclub/100702 /depressionandsuicide.htm

[4] ديفي فان بيما "تعلم كيفية التعامل مع الماضي الذي فشل" الصادر بتاريخ 29 مايو سنة 1989، صفحة 79

هل سبق أبداً ودخلت في مناقشة مع شخص ما في نطاق مناظرة ودية صدوقة، وكنت تشعر أنك تسيطر نسبياً على الموقف حتى فاجأك خصمك بعبارة لم تكن تتوقعها فانتبه لها ذهنك وتحفز؟ ليس أن ما قاله زميلك به كثير من العمق والحِنكة بل لأنك أخِذتَ على حين غرة، ولم تكن تتوقع أن تصدر منه مثل تلك العبارة الجريئة والمباشرة.

وإذ رأى الشيطان أنه قد أصاب صيداً ثميناً وأوقع الفريسة في الفخ، تأهب لتوجيه الضربة القاضية باستكمال حديثه: "بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر" (تكوين 3 : 5). هذه الكلمات القليلة هي أشبه بمن يَعبُر بسيارته المسرعة مشاهد ريفية متنوعة، وفي لحظة من الزمن يتخطاها ويتركها خلفه. إن الفكرة التي عرضها الشيطان على حواء كانت تتضمن بذار اللعنة التي ابتلى بها كل نسل آدم، ودفعتهم للنضال من أجل الأهمية الذاتية. وهي فكرة تبدو تحررية في ظاهرها ولكنها في الواقع تضع الأساس للقيود والأصفاد التي تَستَعبد النفس البشرية في البؤس والشقاء والظلمة. هل أبدو وكأنني أضخم الأمر أكثر مما هو في واقعه؟ تمهل عليَّ، قارئي العزيز، حتى أفنّد ما تنطوي عليه هذه الفكرة المتضمِنة في الكلمات، "لن تموتا"، وننظر إلى نتائجها ودورها في التسبب في الأسئلة التي تتكرر باستمرار، "هل من أحد يهتم بي؟" و"هل أستحق أن يحبني الآخرون؟"

أتذكر عندما كنت في حوالي الثامنة من عمري ونالت أختي عروسة كهدية في عيد الميلاد، تستطيع أن تضحك وتبكي وتشرب الحليب. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تضع حجارة البطارية من ماركة الدوراسيل في داخلها، فتبدأ العروسة بهذه الحركات من تلقاء نفسها.وكانت هذه العروسة الميكانيكية سبب تسلية لأختي التي كانت تلعب بها ساعات طويلة كل يوم. ولكنني سرعان ما بدأت أنزعج وأتضايق كثيراً من صوت ضَحِك العروسة. شعرت برغبة مُلحّة في أن أحطمها . ولكنني عدلت عن رغبتي تلك خوفاً من أن تظل أختي تبكي لمدة ساعة متواصلة. المهم في هذا الأمر هو توجيه النظر إلى حقيقة أن هذه اللعبة كانت تتحرك وتضحك بمجرد وضع البطاريات فيها. وتلك هي الفكرة ذاتها التي حاول الشيطان ايصالها إلى حواء. وكأنه يقول لها أنه لا داعي أن تقلق بخصوص ما يقوله الآخرون، إذ أن عندها حياة في ذاتها ويمكنها أن تفعل ما تشاء دون أن تعاني أي ضرر طالما أنها تمتلك تلك الحياة في ذاتها. أي أنكِ يا حواء لن تموتي، وطالما استطعت العودة إلى هذه الشجرة لشحن "بطاريتك"، فستكونين على خير ما يرام.

هل لك أن تتصور طفلاً عمره سنة ونصف يقول لوالديه: "لا حاجة بي لكما إذ أنني أستطيع تدبير أموري بنفسي. فقد تحدثت للتو مع قزم الحديقة في الخلفية، فقال لي أنني أمتلك قوة في داخلي تبقيني على قيد الحياة وتوفر لي كل احتياجاتي، وشكراً على مساعدتكما حتى الآن وربما ألتقيكما في يوم ما". ذلك ما حدث تماماً لآدم وحواء في الجنة. فالفكرة المتضمنة في العبارة، "لن تموتا"، أثرت على شعورهما بالنسبة لاعتمادهما التام على أبيهما السماوي، وهاجمت ذات الأساسات التي ارتكزت عليها حياتهما. كما أنها بلبلت وشوشت شعورهما بهويتهما الشخصية، وبالتالي قيمتهما الذاتية بوصفهما ابنين لله. فلماذا لم يدرك آدم وحواء خطأهما بسهولة ويعودا إلى وضعهما السابق بالاعتماد الكلي على أبيهما السماوي؟ كم أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة. ولكن نتيجة لاحتضانهما فكرة "لن تموتا لأنكما تمتلكان القوة الذاتية"، كان لها تأثير فوري للحيلولة دون رجوعهما إلى وعيهما وإلى حالة السلام الأصلية التي كانا يتمتعان بها في حضرة الله وشركته. فهذه الفكرة متى عززها المرء ولو لبرهة قصيرة تعمل على تخدير حواس الإدراك

السليم عنده. وسنتوسع في هذه النقطة فيما بعد. ولكن لنعود الآن أدراجنا إلى تلك الشجرة المشؤومة.

لاحظ اقتراح الشيطان بأنهما إذا أكلا من هذه الثمرة فأعينهما ستنفتح بشكل ما إلى مستوى أعلى وأرفع من الوجود. والاستدلال هنا ليس فقط أن لديك السلطة داخل نفسك، ولكن هذا الكون المادي يحتوي على عناصر قوية، حالما تمتلكها تجعلك أكثر قوة، فمرحباً بكَ في العالم المادي. نجد في تكوين 3: 4 و5 أن الشيطان يقوم بمجهود تبشيري جبار ليكسب مرشحين جدد لمملكته الطوباوية الجديدة أو لمدينته الفاضلة. فهو قد عرض ملكوتاً يَعدُ بالقوة والسلطة والارتياح لكل من يتبناه. وترتكز هذه المملكة على مبدأين أساسيين:

1. أنت تمتلك الحياة في ذاتك وهذا يجعلك مستقلاً بالتمام عن أي عون أو سلطة خارجية.
2. بيئتنا تحتوي على أناس وأدوات وأشياء متى امتلكناها أو ارتبطنا بها، فهي تجعلنا أكثر قوة وأكثر استنارة وأكثر قناعة ورضى في الحياة. فمن خلال شجرة المعرفة تلك كان الشيطان يعرض وجوداً تُحَرّكه قوة البطارية الصناعية، حياة لاتحتاج إلى أي عون أو سلطة خارجية. ومن هنا جاء عنوان هذا الفصل، "شجرة الدوراسيل". يحاول الشيطان أن يقنعنا بأن أجسامنا ستظل على حيويتها وتبقى على الدوام إذا نحن اتبعنا فلسفته في الحياة.

من المهم أن نتذكر أنه عندما أكل آدم وحواء من الشجرة المحَّرمة، لم يكن هناك سم متأصل في الثمرة يتسبب في إصابتهما بالخوف والخطية والتمرد. فالكتاب يخبرنا بأن الشجرة كانت "جيدة للأكل" (تكوين 3 : 6). أما السم فكان يكمن في الكلمات التي قالها الشيطان لحواء. السم هو المبادئ التي ترتكز عليها مملكته. يطرح بعض الناس التساؤل: " لماذا يتحتم عليَّ أن أعاني وأتألم، في حين أنني لم أتناول من الثمرة المُحَرّمة، بل حواء وآدم هما اللذان فعلا ذلك؟" ولكن الحقيقة هي أننا في كل مرة نتصرف فيها بشكل مستقل عن الله فإننا بذلك نتناول من الشجرة المحرمة بذات الطريقة التي أقدم عليها كل من حواء وآدم ، لأننا بذلك نكون قد ابتلعنا سم مملكة الشيطان. بل إننا في الواقع إنما نأكل من تلك الشجرة كل يوم، وبالنتيجة نعاني من سوء الهضم المزمن، كما سنرى لاحقاً. إن فكرة كوننا نستطيع العيش بمعزل عن الله قد لا تبدو هكذا غريبة بالنسبة للعديد من الناس ، ولكننا إذ نواصل قراءة الفصل الثاني، سندرك أن مثل هذا النمط من التفكير هو انتحاري بكل معنى الكلمة.

2. ينبوع الحياة

ظللتُ في العمل طوال اليوم. كنا في المراحل النهائية من إعداد الميزانية – والحقيقة أنها كانت عبارة عن دمج 90 ميزانية في ميزانية واحدة. كانت هذه عملية حساسة ودقيقة إذ كان علينا تقسيم الدخل المتاح بين مديري الأعمال الطموحين، وكل منهم يريد ويتمنى، بل وحتى يُصَّر على أن ينال أكبر شريحة من الكعكة حتى يحقق أهدافه. وكان عقلي يحاول جاهداً دفع هذه العملية إلى حيث ينبغي أن تكون والتوفيق بين جميع المستثمرين. ولكن يبدو أنني لم أفلح في ذلك. وبينما أنا مستغرق في هذه العملية رن جرس الهاتف فجأة وجاء الصوت من الطرف الآخر يقول: "السلام، أنا والدك يا ابني". وبدا من صوت والدي أنه قلق للغاية من أمر ما. فبادرته بالسؤال: "ما الأمر يا أبي؟" أجاب بصوت متهدج: "والدتك أصيبت في حادث سيارة خطير". صدمتني هذه الكلمات وكأنها مطرقة ثقيلة فوق رأسي. بدأت أرتعش على الفور ومعدل نبضات قلبي تضاعف بشكل فعلي في لحظة. وتقلصت عضلاتي وتوترت إذ اندفع الأدرينالين كتيار كهربائي عبر جسدي كله. ووجدت نفسي أهمس في التليفون وأنا أحاول أن أمسك السماعة باحكام فلا تهتز في يدي، "حادث؟ وما مدى خطورته؟" وجاءتني الإجابة المُرَوِّعة: "حادث خطير يا ابني".

تمنيت في هذه اللحظة لو أن باستطاعتي القفز عبر الهاتف لأكون إلى جوار أبي. ولكنه كان يبعد عني بمسافة 12 ساعة بالسيارة. وكان عليَّ الانتظار حتى الصباح لأستقل الطائرة. وما أن أغلقت سماعة الهاتف حتى شعرت بجسدي يدور في الهواء واعتراني على الفور شعور بالصدمة والخوف والخدر. في هذه اللحظة تذكرت الرب يسوع المسيح فخررت على ركبتي وصرخت متضرعاً: "أرجوك يا إلهي ألا تدعها تموت". ثم فتحت الكتاب المقدس أمامي، وواصلت صلاتي حتى داخلني الشعور بالهدوء والسكينة والسلام. وبعد ذلك أخذ تفكيري يجول في الأشياء الدنيوية العادية وينشغل إلى حد ما في الأمور الأخرى المُلِحّة أمامي. ولكن سرعان ما عاودني الخوف والعجز والصدمة. وهكذا كان عليَّ معاودة الركوع والصلاة المرة تلو الأخرى والتمسك بالمسيح يسوع.

كانت والدتي في طريقها لتُعلّم درس الموسيقى لتلاميذها. كانت تقود سيارتها على الطريق العام السريع المزدوج. وفي الوسط كانت توجد مساحة عشرة أمتار مزروعة بالحشائش والورود

تفصل بين الطريقين، الذاهب والراجع. وبينما والدتي تحاول أن تتخطى سيارة أخرى أمامها واقتربت من جانب الطريق، كانت هناك سيارة قادمة بسرعة من الاتجاه المعاكس، فقدَ سائقها السيطرة عليها فاندفعت السيارة باتجاه الطريق المعاكس وعبرت قطعة الأرض المزروعة الفاصلة بين الطريقين واصطدمت بمقدمة سيارة والدتي. وهذا كل ما استطاعت والدتي تَذَّكرَه. وعملت شد ة الاصطدام على دفع مُحَرِك السيارة عبر جدار الحماية بالسيارة، وفي الوقت ذاته اندفع مقود السيارة صوب وجه والدتي مباشرة. ولكن في تلك اللحظة، ولسبب غير معروف انكسر المقعد الذي كانت تجلس عليه والدتي، فهوت إلى أسفل ولم يصطدم وجهها بالمقود. وكم أنا شكور لانكسار المقعد، وإلا لماتت والدتي على الفور. وفي المستشفى اكتشفوا وجود كسور في ذراعيها ورجليها كما تفكك الجانب الأيسرمن وجهها وتخلخل.

لدى وصول والدتي إلى المستشفى كان الطبيب قد أنهى دوريته للتو ويوشك على المغادرة. ولكنه حالما رأى حالتها الخطيرة، بدأ معالجتها على الفور. وعلى مدى 8 ساعات متواصلة جاهد الطبيب لانقاذ حياة والدتي. وأخيراً وبعد ذلك التعب الطويل الذي أمسكنا فيه أنفاسنا قلقاً عليها، استقرت حالتها. والحقيقة أنني أعجز عن ايجاد الكلمات التي بها أعبّر عن شكري لذلك الطبيب. وحتى الآن فإنني أجد الدموع تملأ عيني كلما تذكرت ما حدث. فهذا الطبيب عمل على مدى 16 ساعة متواصلة. كان المفروض أن تنتهي دوريته عندما أُدخِلت أمي المستشفى. فبقي إلى جوارها ولم يغادر. وبعد 16 ساعة من العمل المتواصل لانقاذ حياتها اتصل بوالدي في الساعة الثالثة صباحاً ليخبره أن زوجته في حالة حرجة ولكن مستقرة. إنني أشعر بالامتنان الشديد لهذا الطبيب رغم مرور مدة طويلة منذ الحادث. فهو قد قدم المثال الأفضل للتضحية واللطف والاهتمام مستخدماً كل مهارته وقوته لإنجاز المهمة التي أمامه. يا له من مثال رائع للأمانة والاجتهاد والإخلاص الذي ينبغي أن يتحلى به كل من َدخَل مهنة الطب.

بعد عدة أيام كنت أنا وزوجتي نلازم والدتي في غرفة العناية المركزة. ورغم التشوهات والكدمات التي ظهرت على جسدها، إلا أنني كنت سعيداً لأنها ما زالت على قيد الحياة. وقد دُهِش الأطباء للسرعة التي تعافت بها والدتي. وأخبرونا في المستشفى أنها لن تستطيع فيما بعد العزف على البيانو، بل وقد لا تستطيع السير على قدميها أبداً. كانت تلك الأخبار قد أصابتنا بالصدمة الشديدة. ولكني رغم ذلك فرحت أنها ما زالت حية. وإذ كانت زوجتي لوريل تتفحص التقرير الطبي اليومي لوالدتي، أومأت إليّ أن آتي وأقرأ التقرير معها. ففي مرحلة ما من هذا التقرير سجل الطبيب أن والدتي قد لا تعيش. ولكن فجأة أظهر باقي التقرير أن علامات الحيوية ظهرت عليها بعد ذلك، وأن حالتها استقرت. ولم يوضح التقرير كيف حدث هذا التغيير في حالتها. ولكنني أدركت أن الآب السماوي، مصدر كل حياة، قد أرسل ابنه يسوع لينقذ حياتها. وكم أنا شكور لتلك الحياة المُجَدَدّة التي منحها لها المسيح. واليوم، والدتي تسير على قدميها. وأحياناً عندما تعزف على البيانو يعتمل قلبي بشعور عميق من الامتنان للمسيح الذي أنقذ والدتي من موت محقق.

عندما يتعلق الأمر بتفهمنا لمصدر الحياة، فالكتاب المقدس يؤكد لنا الأمر ويزيل كل تساؤل أو تشكك إذ نقرأ عن يسوع ما يلي:

> **"فإنه فيه خُلق الكل** ما في السموات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق الذي هو قبل كل شيء **وفيه يقوم الكل"** (كولوسي 1: 16 و17).

كل ما نراه ونفهمه، وحتى الأشياء التي لا نراها، خلقها الربّ يسوع المسيح، وهو الآن يدعم ويعضد ما خلقه. "لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك" (أخبار الأيام الأول 29: 14).

لاحظ بتدقيق كلمات الجملة الأخيرة في الآية من كولوسي، "وفيه يقوم الكل". يخبرنا النص بوضوح أن قوة الحياة التي تتدفق من ابن الله هي التي تحمل الكون بأسره وتبقيه متماسكاً. ويُعبّر الرسول بولس في سفر أعمال الرسل عن الفكرة ذاتها بكلمات أخرى:

> "الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا، إذ هو رب السماء والأرض، لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي، ولا يخدم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء، **إذ هو يعطي الجميع حياةً ونفساً وكل شيء.** وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض، **وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم.** لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه، مع أنه **عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد،** كما قال بعض شعرائكم أيضاً: لأننا أيضاً ذريته" (أعمال الرسل 17: 24 – 28).

نرى هنا أن الله يلازم حياتنا بشكل دقيق ويهتم بها. ويعطينا الرسول بولس في بداية حديثه الصورة الأكبر ثم يتدرج في حديثه ليجعل المشهد أكثر تركيزاً حتى يصل إلى المستوى الشخصي الحميم:

1. حتم بالأوقات المعينة أي جعل لكل أمة مكانها وزمانها.
2. هو ليس بعيداً عن كل واحد منا.
3. وأخيراً يدخل الرسول بولس مباشرة إلى قلب الموضوع فيقول أننا به نحيا ونتحرك ونوجد.

فإن كنا نحيا به، فالمنطق البسيط يعرفنا أننا لا نستطيع أن نحيا بدونه. والمسيح بوصفه ابن الله والنائب الإلهي قال: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يوحنا 15 : 5). وأرجو أن تفهموا أن هذا يعني أننا لا نستطيع بدونه أن نفعل أي شيء جسدياً وعقلياً وروحياً. فنحن نعتمد على الله وعلى ابنه اعتماداً تاماً، في كل شيء، تماماً مثلما يعتمد الطفل الصغير على والديه.

وسأوضح هذه النقطة لأنها بعيدة المدى في تأثيراتها وتطبيقاتها. لنتأمل في قلب الإنسان، ذلك العضو المذهل. فهو يعمل كمضخة لدفع الدم في دورته حول الجسم بأكمله، ويستمر في نبضه دون توقف على مدى عشرات السنين . والأمر المذهل عن القلب هو أن نبضاته لا تبدو أنها تستعين بأية قوة خارج نفسها. فعضلة القلب تعمل من تلقاء ذاتها وبامكانها أن تنقبض وتتقلص دونما أي حافز مباشر من الجهاز العصبي. فهذه العضلة تتضمن ما يُعرف بجهاز التنظيم الفعلي، ويصفها كتاب التشريح هكذا: " يتألف نظام التوصيل (القلب) من الأنسجة العضلية المتخصصة والتي توَّلد وتوزع النبضات الكهربائية والتي بدورها تحفز ألياف العضلة القلبية على الانقباض. وهذه الألياف العضلية هي ألياف متخصصة بالطبع لأنها تُوّلد نبضات كهربائية لا تأتي من الجهاز العصبي. ومن المدهش حقاً أن كتاب التشريح لا يتطرق أبداً إلى التعليل للكيفية التي تعمل بها هذه الألياف العضلية على توليد هذه الشحنات الكهربائية التي تجعل القلب

ينقبض. وهو ما يطلق عليه التعريف: "التخصصي الفعلي" [5]... ولكن كيف تفعل ذلك، ومن أين تأتي هذه الطاقة؟

في هذه النقطة بالذات يتفرع المسار . فالكتاب المقدس يخبرنا أن هذه الطاقة تأتي من الله مباشرة: "به نحيا" (أعمال 17 : 28). ولكن الشيطان يقول أن هذه الطاقة متلازمة أو متأصلة في داخلنا، وأنها ببساطة جزء من العملية البيولوجية التي نمتلكها في ذواتنا، "لن تموتا" (تكوين 3 : 4). ذلك موضوع رئيسيّ وجوهري. فإما أن يكون هذا أو ذاك. ومسيحيون كثيرون يحاولون اليوم اتخاذ الموقف الوسط بخصوص هذا الموضوع فيقولون، "صحيح أن الله خلق كل شيء. ولكن هذا أشبه بالهواء الذي يدير المروحة. فالله بدأ الخليقة ثم تركها لتدبر شأنها". وكأن الله صنع بطاريات الدوراسيل ووضعها في داخلنا. ولكن الكتاب المقدس لا يدعم هذه الفكرة على الإطلاق. فنحن مرتبطون به تعالى، بشكل دقيق ونعتمد عليه بشكل كامل في كل ثانية وفي كل دقيقة وفي كل ساعة وفي كل يوم. به نحيا ونتحرك ونوجد وليس بأي شيء آخر. الله كلي المعرفة ويعمل بنشاط ومحبة ليمدنا بالشحنة الكهربائية التي تجعل قلوبنا تنبض بالحياة. وهناك أمر ما بخصوص هذه الحقيقة الواقعية يمكن أن يجعلنا كبشر غير مرتاحين حقاً. ولكننا سنتطرق إلى ذلك لاحقاً. الحقيقة هي أننا بحاجة إلى أن يتضح لنا هذا الموضوع الآن. فنحن إما نؤمن أننا "به نحيا ونتحرك ونوجد"، أو نؤمن بما قاله الشيطان لحواء، "لن تموتا"، أي أننا سنحيا على الدوام. ولا يوجد اختيار وسطي في هذا الأمر.

وإن كان ذلك يبدو تحدياً كبيراً بالنسبة للكثيرين منا، إلا أننا لم نتناول سوى الجزء الجسدي من الوجود البشري وعلينا الآن أن نتطرق إلى النواحي العقلية والروحية. لاحظ الآيات التالية:

> "لكي تتعزى قلوبهم مقترنة في المحبة لكل غنى يقين الفهم، لمعرفة سر الله الآب والمسيح، **المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم**" (كولوسي 2: 2 و3).

> "وكلم الرب موسى قائلاً، انظر قد دعوت بصلئيل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه. **وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة لاختراع مخترعات** ليعمل في الذهب والفضة والنحاس ونقش حجارة للترصيع ونجارة الخشب. ليعمل في كل صنعة" (خروج 31 : 1 – 5).

الكتاب المقدس يظهر الله على أنه مصدر كل حكمة ومعرفة. وما ورد في كولوسي 2: 2 و3 يضع تحدياً أمام فكرة أننا كبشر يمكننا أن ننتج الحكمة والمعرفة من ذواتنا. فكل الحكمة وكل المعرفة إنما تأتي من الله بالمسيح يسوع ابنه. وأكبر مثال على ذلك يظهرفيما جاء في خروج 31: 1 – 5، التي اقتبسناها أعلاه. فنحن نرى هنا أن الله هو الذي يهب للإنسان الحكمة والفطنة والفهم في الصناعة والحِرَف. ومن المثير للاهتمام أننا كثيراً ما نشير إلى الأشخاص الذين يُظهِرون قدرة كبيرة، على أنهم موهوبون، وهم بالحقيقة موهوبون، ولكن موهبتهم تأتي من الله.

---

[5] (جيرارد تورتورا ونيكولاس أناجنوستاكوس، من كتاب مبادئ علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء الصادر سنة 1984 بمدينة نيويورك، صفحة 463).

لنتخيل أنفسنا الآن على أننا نحضر حفلاً موسيقياً. وقد جلس الحاضرون في صمت وترقب وهم يتابعون سماع الموسيقى العذبة، بينما راحت الشابة الموهوبة تعزف بأصابعها على البيانو صعوداً ونزولاً برشاقة ودقة متناهية. وقد جعلت الشابة البيانو الذي فوق المنصة يكاد يرنم بصوت مسموع . فلمسات أناملها المحترفة شخّصت الموسيقى في آذان السامعين وجعلتهم يطربون. وسرعان ما وصلت معزوفتها إلى ذروتها، وإذ نُرهِف السمع إليها نعلم أن نهاية المقطوعة أوشكت. ونحن نتوق أن تواصل العزف، ولكن المعزوفة تنتهي فجأة في توقيتها الدقيق، وتنفجر القاعة بتصفيق حار. وإذ تبتهج العازفة الشابة بهذا الإطراء تقف في حياء ورشاقة لتستنشق عبير المديح وتنحني احتراماً للجمهور، ثم تغادر بخفة وأناقة وتنزل عن المنصة.

لنعود أدراجنا قليلاً لنركز على أمر مهم في هذا السيناريو المشترك. في كل مرة يحدث أمر كهذا، فعلى الجمهور أن يهتفوا مترنمين وقائلين: "المجد لله الذي منه تتدفق كافة البركات"، أو "يتبارك الرب على ما أغدق من مواهب". فالتصفيق ينبغي أن يُوجه لله الذي يمنح المهارة والحكمة والمقدرة للبشر. أما عازفة البيانو فينبغي أن يفيض قلبها بالمحبة والامتنان لله من أجل الموهبة التي منحها هو لها لاستخدامها. ولكن هذا نادراً ما يحدث. ولو أننا تصرفنا هكذا بالفعل ووجهنا الثناء لله وليس لنا، لما ارتفع قلبنا بالنجاح ولا أُصِبنَا بالإحباط إذا فشلنا، لأن المقدرة على الأداء لا تنبع منا، وما دام الأمر كذلك فلا يمكننا أن نأخذ الفخر لأنفسنا إذا نجحنا ولا نُصاب باليأس إذا فشلنا.

هنا تكمن لعنة "شجرة الدوراسيل" (أي بطاريات التشغيل). تخيل الحرية التي تصاحب رياضة التحليق الشراعي المروحي [6] في الهواء الطلق. فإن الشعور بالحرية الذي نختبره عندما ننجح معتقدين أننا مصدر ذلك النجاح، هو أشبه بالنشوة التي يشعر بها الشخص عندما يتسلق آلاف الأمتار فوق سطح الأرض لمشاهدة المناظر الخلابة من فوق. ولكن عندما يتم الصعود أكثر من اللازم، فإن ذلك قد يسبب نقصاً في الأكسجين مما يؤدي إلى فقدان الوعي أو تحطم المحرك وتحطم الشخص أيضاً فور سقوطه على الأرض. وبالمثل كلما توغل شخص ما في أكذوبة القوة الداخلية، كلما كانت ردة الفعل عنيفة وقوية عند إرتطامه بالأرض. فلا يمكن الهروب من لعنة شجرة الدوراسيل. ففي اللحظة التي تتذوق فيها ثمرتها، فإن الرغبة في الصعود لا يمكن مقاومتها، وعاقبتها النهائية لا مفر منها. ولذلك فليس من قبيل المصادفة أن الكآبة أو الاكتئاب هو السبب الرئيسي للإعاقة والعجز على مستوى العالم.[7]

إن شجرة الدوراسيل تخلق فينا الرغبة في الصعود إلى مرتفعات ليست مناسبة لنا. وكلما أكلنا من ثمرها أكثر، كلما زادت رغبتنا في الصعود والارتفاع، وكلما ازدادت أيضاً حدة سقوطنا ويقينية تحطمنا. فكم عدد المرات التي ارتطمت أنت فيها؟ وما مدى تحملك للمزيد منها؟ الأمر يستحق التأمل والتروي.

---

[6] البار اموتور هو إحدى الرياضات الجوية، ويعد البار اموتور طائرة ذات وزن خفيف، يتكون من مظلة ومحرك. يقوم التحليق من مكان واسع خالي من العوائق وهو لا يحتاج إلى منحدر للإقلاع. يتكون المحرك من كج لحماية خيوط المظلة ويمنعها من ملامسة المروحة. المحرك يقوم بتدوير المروحة لتعطي قوة دفع. يتم الإقلاع إمّا بالجري أو بإستعمال عربة يكون بها إما عجلات أو زلاجات - في الأماكن التي بها ثلوج - يستطيع البار اموتور حمل شخص واحد أو اثنين – وكيبيديا

[7] http://www.who.int/mental_health/management/depression/en/

ننتقل الآن إلى المستوى التالي. لقد بحثنا في الآثار والتطبيقات المترتبة على اعتمادنا على الناحية الجسدية والعقلية. ولكن ماذا عن الناحية الروحية والأدبية؟ هذه مسألة صعبة وتشكل تحدياً أمامنا فعليك الآن الاستعداد لمناقشتها

يخبرنا الكتاب المقدس أن "الله محبة" (يوحنا الأولى 4 : 8). وأنه مصدر كل محبة. كما يشير الكتاب أيضاً إلى الله على أنه إله الرجاء (رومية 15 : 13). ويتوسع الرسول بولس في هذه الفكرة ذاتها في رسالته إلى غلاطية:

> "وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف. ضد أمثال هذه ليس ناموس" (غلاطية 5: 22 و23).

الآثار والنتائج المترتبة على هذا النص تجذب انتباهنا. وإذا حللنا ما قرأناه للتو نجد أن كل هذه الصفات إنما تأتي من وجود روح الله فينا. وهذا يعني ببساطة أننا بدون روح الله لا يمكن أن يكون فينا محبة ولا فرح ولا سلام ولا طول أناة ولا لطف .. وهكذا. كنت ذات يوم أفكر في هذه الحقيقة الكتابية، أثناء ما كنت أسير في المنتزه بجوار البحيرة. كان الهدوء والسلام يسودان المكان. وفجأة لاحظتُ أماً تدفع ابنتها على الأرجوحة. كانت الإثنتان تضحكان معاً وتستمتعان بشركتهما معاً. فهذه المحبة التي كانت الأم تظهرها لابنتها إنما كانت من الله أساساً. ففكرة كونها مُحِبة وشفوقة ولطيفة تجاه ابنتها لم تنشأ في قلب الأم، لكن في قلب الله الذي وهبها للأم التي اختارت بدورها أن تظهرها وتعبِّر عنها، فأصبحت هي محبة الأم. وبهذا المعني هي ليست بالحقيقة محبة الأم على الإطلاق ولكنها بالأحرى محبة الله التي عبّرت عن ذاتها من خلال الأم. وهذه المحبة أصبحت جزءً من الأم لأنها استجابت لروح الله وعبرَّت عنها. أما بالمعنى الحرفي فلا يوجد شيء هو حب الأم لأبنائها أو الحب الذي بين الزوج وزوجته. قد يبدو ذلك أمراً راديكالياً، لكن الكتاب المقدس يعلمنا ذلك.

لقد قَدَمتُ هذه الفكرة عدة مرات عندما كنت أعظ أو أتحدث في الندوات الدراسية، ومن المثير أن نرى كيف تَجَاوَبَ الحاضرون. فأثناء حديثي عن الموضوع لاحظت وجوه بعض الحاضرين وهي تعبّر عن الاستغراب والدهشة. ولكنني أوضحت لهم أن الحب الذي تعبّر عنه ملايين الأشرطة المسجلة، والوعود التي يقطعها الزوجان أمام مذبح الصلاة بأن يحب كل طرف الطرف الآخر إلى الأبد، أوَضحتُ أنه لا يمكن الالتزام ولا بوعد واحد من هذه الوعود التي تُعَد بالبلايين، إلا بقوة الله التي تسكب هذه المحبة في قلوبنا. ولو وضعنا صفة المحبة في الطائرة الشراعية المروحية (الباراموتور)، لوجدنا أن العديد سيسقطون ويتحطمون فور وقوعهم على الأرض. إن الذين يعتقدون أن المحبة تنبع أساساً من داخلهم وأنهم هم مصدر هذه المحبة، كثيراً ما يستيقظون في الصباح ولا يشعرون بأنهم يحبون شريك حياتهم. والزوجان اللذان ينتابهما مثل هذا الشعور يبدآن التشكك فيما إذا كانت علاقتهما الزوجية على خيرما يرام، وفيما إذا كانت ستدوم على الإطلاق. وكثيراً ما يبحث الزوجان عن طرف ثالث ليساعدهما على استعادة علاقتهما السوية من جديد. لقد نفذ رصيد دوراسيل الخاص بهما، وقد آن الأوان للدفع.

وماذا عن الزوج المخلص الذي كان بالفعل ينطق بتعهدات الزواج من كل قلبه بأن يحب زوجته ويحميها في السراء والضراء، ولكنه يجد نفسه فجأة وقد انجذب إلى سيدة أخرى. ربما هو لايريد أن يشعر أنه قد انجذب، لكنه لا يستطيع الحيلولة دون شعوره هذا. وسرعان ما يختلط عليه الأمر فيما إذا كانت تلك محبة أم شهوة، وينتابه الشك بالنسبة لنزاهته واستقامته. ومن ثم

فهو يبدأ بالانسحاب عن شريكة حياته، لأن شعوره بالذنب على تصرفه ذلك يحول بينه وبين الشعور بأنه محبوب من الطرف الآخر. كان يعتقد أن باستطاعته المحافظة عل تدفق الحب من قلبه، ولكنه يكتشف أن طائرته الشراعية المروحية قد تعطلت فيهبط على الأرض محطماً من المكان الذي انطلق منه. وبالتالي ينتهي زواجه ويتحطم. لا عجب إذاً، والحال هكذا، أن تدرك بأن ايجاد الفرح في الزواج هو أمر بعيد المنال بالنسبة لمعظم الناس.

وبالنسبة للذين يشعرون وكأن زواجهم ما عادت له أية قيمة في نظرهم، فعلى هؤلاء أن يتذكروا أن المحبة مصدرها الأصلي في قلب الله وحده، وأنها متاحة مجاناً لكل الذين يطلبونها منه. فإذا كنت تشعر وكأنك فقدت هذا الحب لشريكة حياتك، فعليك أن تطلب من الله أن يعيد ذلك الحب إلى قلبك. وهو سيستجيب لطلبك ويتمم وعده لك.

> "ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن. إن سألتم شيئا باسمي فإني أفعله" (يوحنا 14: 13 – 14).

3. بالقرب من قلب الله

بدأت زوجتي الحامل تشعر ببعض التقلصات الأولية التي تسبق الولادة. فأسرعت بها بالسيارة صوب المستشفى إذ لم أكن أريد الوقوع في ورطة. كان الأمر جديداً علينا ومثيراً في الوقت ذاته، إذ كنا ننتظر مولودنا الأول. ولدى إدخالها إلى غرفة التوليد ألقت الممرضة نظرة فاحصة على زوجتي وقالت، "لابد أن الشغف والفرح يملأ قلبيكما. ولكن عليكما التنزه والسير لبعض الوقت لأن موعد الولادة لم يحن بعد". وباستغراب كبير خرجنا وعدنا بعد 45 دقيقة. ولم تكن زوجتي لوريل تبتسم الآن، لأن بعد نصف ساعة أخرى عاد الطلق، وتقلُصات الولادة تواترت بشدة. وحاولنا أن نتذكر الدروس التي تلقيناها بخصوص ما يمكن لنا عمله أثناء هذه المرحلة، ولكننا لم نستطع التركيز لأن التقلصات عند زوجتي كانت مؤلمة وتوالت على فترات متقاربة جداً. وأخيراً وبعد 11 ساعة وُلِدَ ابننا الأول مايكل.

وتوجد صورة التقطت لنا بعد الولادة مباشرة بدت فيها زوجتي لوريل والسرور يرتسم على وجهها. وكنت أنا أبدو وكأني عل وشك الانهيار. ومنذ هذه اللحظة تنامى في داخلي احترام جديد وعميق للأمومة. إن مراقبة الزوج لزوجته وهي تضع مولودها، ليس بالأمر السهل على الإطلاق.

قد يبدو هذا مضحكاً، ولكن مراقبة الزوج لزوجته وهي تعاني من آلام الولادة، يصيبه بتوتر عصبي وانفعالات تواتورية شديدة. وعادة ما يكون لدى الزوج الحلول لأية مشكلة بالبيت، ولكن لهذه المعاناة أثناء الولادة يبقى الزوج عاجزاً تماماً عن عمل أي شيء للتخفيف عن زوجته التي يحبها. فهو لا يستطيع إلا أن يقف متألماً لآلام زوجته. وكل ما استطعت فعله هو رفع صلاة الى الله قلت فيها، "يارب أنا أعلم أن هناك سبباً لهذا الألم الذي تمر به زوجتي، ولكنني لا أستطيع تفهمه تماماً في هذه اللحظة". وكم كنت سعيداً عندما انتهت المعاناة بخروج المولود إلى النور.

وعندما حَمَلتُ ابني للمرة الأولى كانت تلك لحظة خالدة. تطلعت إلى عينيه فوجدته ينظر إلي مباشرة. وقد فَعَلَت نظرته تلك فِعلَ السحر في قلبي. وإذ واصلت النظر إليه في رهبة وعجب انتابني شعور من الخوف. أدركت أن ابني قد نال ذات الطبيعة التي لي أنا والده، طبيعة تتحدى السلطة وتنجذب بشكل تلقائي صوب التمرد عوض الطاعة. أدركت أن مسؤوليتي الآن هي تدريب إرادته على المحبة الحقيقية واللطف والإيثار والطاعة. وبعد كل هذا، تساءلت فيما إذا كان سيكون صديقي؟ أم هل يأتي بيننا ما يفرقنا عن بعضنا؟ ورفعت صلاتي هناك قائلاً: "أبي السماوي لا تسمح بأن يأتي بيني وبين ابني هذا ما قد يُفَرّقنا في المستقبل. وليتنا دائماً نكون على علاقة جيدة وثيقة، وليته يتعرف إلى والده قريباً ويكون صديقي". وأنا مازلت حتى الآن

أشعر بحرارة تلك الصلاة التي رفعتها عندئذ. وما زلت أرددها وأؤمن أن الله سيجعلها حقيقة واقعية في حياتنا.

بعد ذلك بأربع سنوات إذ كنت في أحد أيام السبوت، أسير متنزهاً في الطبيعة وأتحدث إلى الله بعيداً عن ضوضاء وزحام المدينة، أخذت أتأمل في محبة الآب السماوي لي. وفجأة عادت إلى ذاكرتي أحداث ولادة ابني وكأنها شريط سينمائي داخل مخيلتي. وعاودتني تلك الرغبة الجامحة بألا ينفصل أحدنا عن الآخر أبداً، وأن يعرفني ابني معرفة حقيقية على أنني والده المحب. وإذ عَبَر ذلك المشهد أمام عقلي، وفي هدوء وسكينة الطبيعة من حولي، سمعت صوتاً خافتاً يرن في تفكيري قائلاً: "تلك هي الطريقة عينها التي أشعر أنا بها تجاهك". لم أعلم إذا كان يجب أن أضحك أم أبكي عندئذ. وكانت فكرة محبة الله هكذا لي، مدهشة جداً لدرجة أنني ما كدت أصدقها. فناجيت ربي قائلاً: "ولكنك يا إلهي تعلم جيداً ما أنا عليه، وأنني تفوهت أو فعلت أشياء خاطئة كثيرة". وهكذا استمريت في المقاومة. وكم دهشت لحالتي الحقيقية. فأنا رجل قد قبل المسيح مخلصاً شخصياً لي وآمنت أنه غفر ذنوبي وخطاياي. ولكن عندما شعرت أن الله اقترب مني بهذا القدر ليخبرني بشعوره تجاهي، عَقَدَت الدهشة حواسي وكان من الصعب قبول هذه الفكرة من شدة حلاوتها. وأخيراً هتفت قائلاً: "شكراً لك، شكراً، إذ أحببتني هكذا. وأشكرك من أجل كل ما فعلته لي. إنني أحبك كثيراً". وشعرت وقتها وكأن الله يمسكني بين ذراعيه بشكل حقيقي. ووصَلَت سعادتي إلى قمتها إذ أدركت أن أبي السماوي يحبني كثيراً بحيث أنه لا يريد أن يأتي بيننا ما يفرقنا عن بعضنا، وأنه يفعل كل ما يستطيع ليحول دون حدوث هذا الأمر.

في ذلك الاختبار أُعلِن لي الامتياز العجيب بكوني جزء من ملكوت الله، إذ شعرت به في قلبي. وبعد هذا الحدث بوقت قصير قادني الله بروحه القدوس إلى بعض آيات الكتاب المقدس التي فَتَحَت عينيَّ بشكل واقعي وجعلتني أمجّد الله أكثر وأكثر. وأصَلي أن يلتهب قلبك أنت أيضاً، عزيزي القارئ، بأهمية آيات الكتاب المقدس، وأن تظل حقيقتها تُلهِبُ إحساسك كما لم يحدث لك من قبل. فكلمة الله تشكل نافذة صافية تطل على ملكوت الله.

> "أليست خمسة عصافير تباع بفلسين، وواحد منها ليس منسياً أمام الله؟ بل شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة. فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة" (لوقا 12: 6 و7).

يوضح المسيح هنا مبادىء ملكوته. ففي هذه الآيات لدينا صيغة لما يجعل الناس مهمين في هذا الملكوت وما يجعل لهم قيمة كبيرة. فإذا كانت هذه الأمور غير مهمة بالنسبة لك، فهذه الآيات التي أشرنا إليها هنا، لن تعني لك شيئاً. ولكني لم أجد حتى الآن شخصًا لا يواجه تحديات خاصة بالقيمة الذاتية أو تقدير الذات.

يوضح المسيح قيمة عصفورين، في تعابير بشرية. وبالمعنى البشري الأرضي، هذه العصافير لم يكن لها قيمة كبيرة. ويقدم المسيح عندئذ المقارنة فيقول: "وواحد منها ليس منسياً أمام الله". وتفيد المقارنة هنا بأنه مادام الله يتذكر العصافير، فإنها مرتفعة القيمة في ملكوت الله. ويتوسع المسيح في هذا المبدأ ذاته إذ يقارنه بمدى تفكير الله فينا نحن البشر الذين تفوق قيمتنا قيمة العصافير بما لايقاس، فيقول مؤكداً: "بل شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة". وإن لم تكن تلك محبة عميقة وشخصية، فماذا تكون إذاً؟ وهل من أحد يريد أن يعرف عنك الكثير بحيث أنه يذكر حتى عدد شعر رأسك؟ ثم تأتي الرسالة المهمة والتي تلخص الأمر كله لنا: "فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة. "أترى كيف يُقَدّر الله ويحسب القيمة والأهمية في ملكوته، وكيف يمكن للشخص أن ينال هذه القيمة وتلك الأهمية؟ هذه القيمة تأتي من إدراكنا بأن الله في محبته العظيمة يفكر فينا باستمرار. فنحن دائماً موضع اهتمامه ورعايته. وهو الذي يمنحنا الحياة

ويجعل قلوبنا تنبض بها ويسكب محبته في قلوبنا حتى نستمتع نحن بهذه الحياة التي وهبها لنا. كما أنه يهبنا أيضاً عطايا كثيرة وثمينة ومواهب وقدرات لنتمتع بها ونستخدمها في خدمة الآخرين. هنا يكمن سر ملكوت الله وأهميته وهو المفتاح الذي يكشف ويفضح أبواب مملكة الشيطان والتي تتضمن الاستعباد والتفاهة والاكتئا. فهل لديك الشجاعة لتصدق ذلك؟

وبينما نحن نناقش هذه النقطة. فهل تعلم مدى تفكير الله فيك أنت شخصياً؟ استمع إلى كلمات الوحي التالية:

"كثيراً ما جعلتَ أنت أيها الرب إلهي عجائبك وأفكارك من جهتنا لا تقوم لديك. لأخبرن وأتكلمن بها. زادت عن أن تعد" (مزمور 40 : 5) .

إذا كانت قيمتنا تتقرر وفق أفكار الله المُحِبة تجاهنا، فهذه الآية إذاً تخبرنا بأننا لا نُقَدّر بثمن، طالما أنها تعلن أن أفكاره وخطته من نحونا هي أكبر وأعظم من أن يمكن إعلانها أو إحصاء وتقدير حدودها. كيف يكون شعورك عندما تدرك أن قيمتك لا تُقَدّر بثمن؟ ولكن هذه الحقيقة إنما ترتكز على قناعتنا وتصديقنا لحقيقة محبة الله الكبيرة التي لا تقاس بغض النظر عن مدى صلاحنا أو شرنا. تلك أخبار سارة وعظيمة، وأنا أشكر الله عليها. فحينما تُجَرّب لأن تشك في مدى قيمتك في نظر الله، فما عليك عندئذ إلا أن تلقي نظرة على العصفور فيتعمق إعجابك بمحبة الله الواسعة لك شخصياً.

4. مملكة العائلة

كان ذلك اليوم دافئاً ورطباً وأنا جالس وسط محيط من الاحتفالية الذي عمَّ الغرفة، بينما انبعثت من المطبخ رائحة زكية انعشت براعم التذوق في فمي وأسالت اللعاب. وأدركتُ أن طعاماً لذيذاً يُجَهّز للمناسبة. كانت الضحكات تتردد في المكان بينما كانت قصص الماضي تُسرد والهدايا يتم تبادلها في جو من التوقع المختلط بالمفاجأة والمحبة. وكان الأطفال يلعبون في الحديقة خارجاً ويُرطِبون أجسادهم بخرطوم المياه والرش في كل مكان. كان ذلك موسم احتفال نهاية العام في استراليا. وهو وقت تجتمع كل عائلة معاً، وقت خاص بأفراد الأسرة لإعادة تأكيد روابط الانتماء والاتصال مع من نحبهم ونتبادل معهم الهدايا – وهو وقت ثمين ومهم لاجتماع أفراد كل أسرة معاً.

ليس من شيء أكثر أهمية من الشعور بالانتماء إلى عائلة مقرّبة لتوفيرالحماية لنا من الاكتئاب المتنامي والشعور بعدم الأهمية. فالعائلة هي الحب الذي تشعر فيه بالقبول على ما أنت عليه وحيث تتصرف على طبيعتك دونما تكلف أو تصنع وحيث تنال المسامحة عن الأخطاء والهفوات التي ترتكبها وحيث تشعر بالانتماء والمشاركة والألفة معاً.

يعرض المسيح أمامنا صورة فعالة عن ملكوت الله في الصلاة الربانية التي علَّمنا إياها حيث قال: "متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السموات ...". لم يوصِنا أن نقول "عزيزي الله" أو "عزيزي الملك المعظم" بل بالأحرى "أبانا".

ملكوت الله هو عائلة

هذا أمر يبدو بديهياً للبعض ولكن التطبيقات المترتبة على أسرة الملكوت بعيدة المدى. وسنتطرق إلى هذه التطبيقات في الفصول القادمة. المرة الأولى التي تحدث فيها الله للجنس البشري نجدها في متى 3 : 17: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت". فمنذ مطلع التاريخ وحتى معمودية المسيح، كان الله يتصل بالبشرية من خلال ابنه. فالمسيح في ملء لاهوته الموروث، كان هو يهوه الذي فتح البحر الأحمر وشقَّهُ أمام شعبه، والذي أرعد من جبل سيناء والذي قاد يشوع إلى أرض الموعد (كورنثوس الأولى 10 : 1 – 4). وفي وقت معمودية المسيح صار ابن الله هو عمانوئيل – الله معنا، أي واحد معنا. والآن يتحدث إلينا الله لأول مرة، وكلماته لها مغزى كبير ومهم، كما هو الحال دائماً، لأنه هنا يضع أمامنا ويحدد جوهر طبيعة ملكوته، "هذا هو ابني الذي أحبه وأسَرُ به". وكان بامكان الله استخدام طرق أخرى كثيرة لتقديم ابنه مثل: "هذا هو

خالق السموات والأرض له اسمعوا". أو "هذا هو ملككم أطيعوه". ولكن الله أعلن هوية ابنه في تعابير عائلية عوض استخدام تعابير ملوكية أو تلك التي تُطلق على الحُكَّام. ولو أننا حلَّلنا العبارة التي نطق بها الله للاحظنا الآتي:

1. هذا هو ابني = **الهوية**
2. الحبيب (الذي أحبه) الذي به سررت = **القيمة**

تتقرر القيمة والأهمية في ملكوت الله بناء على علاقتنا به. وهذا على نقيض تام مع ملكوت الشيطان حيث تتقرر القيمة والأهمية وفق إنجازاتنا وأدائنا الناجح بحسب حكمنا نحن وحكم الآخرين من حولنا. أما في ملكوت الله فهو أبونا ونحن أولاده. تلك هي هويتنا. فنحن نُعرَف وفق الشخص الذي ننتمي إليه وليس ما نقوم به وننجزه. إن حقيقة أن الله يحبنا بوصفنا أولاده ويسكب علينا بركاته باستمرار ويفكر فينا دائماً ويريد أن يكون قريباً منا – هذا كله يعطينا شعوراً بالقيمة الكبيرة التي لنا. "لا تخافوا لأنكم أفضل من عصافير كثيرة".

إن هويتنا وقيمتنا في ملكوت الله تدوم دوام الله الأبدي نفسه الذي لا يتغير أبداً. وبغض النظر عن نجاحنا أو تقاعسنا، تظل العلاقة مستمرة ودائمة وقيمتنا ثابتة ومضمونة. أما ضمان قيمتنا في مملكة الشيطان فلا ثبات لها بل هي متزعزعة تزعزع سوق الأوراق المالية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001. أي أنها متقلبة للغاية وغير آمنة تماماً بل ومعرضة للتحطم. هل نضمن أننا سننجح دائماً؟ وهل لنا أن نتأكد أن الناس من حولنا الذين نتطلع اليهم للتشجيع والتعضيد سيُصَفقون لنا دائماً ويُثنون على جهودنا؟ ليس هذا هو الحال بالطبع. فليعلم الذين لهم آذان للسمع أن الرجل الحكيم بنى بيته على الصخر عوض الرمال السائبة. فلكي يحمي الله هويتنا الفردية وينقذنا من حياة الفشل واليأس والخيبة وعدم الأهمية والموت، وضع في وسط ملكوته ناموساً يحمي العلاقات. وهذا الناموس يتناول نوعين من العلاقات: العلاقة بيننا وبين أبينا السماوي، والعلاقة بين بعضنا البعض بوصفنا إخوة وأخوات في ملكوت الله. لهذا قال المسيح:

> "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء" (متى 22 : 37 – 40).

هاتان الوصيتان العظيمتان تهدفان إلى الحفاظ على هويتنا وقيمتنا كأولاد الله. والوصيتان تلخصان الوصايا العشر. هل فكرت أبداً في الوصايا العشرعلى أنها مهمة في المحافظة عليك من أن تفقد قيمتك الذاتية؟ تُفَهم الوصايا العشر، في سياق العلاقات. فإذا أنت فصلت هذه العلاقات وقطعتها، فأنت بذلك تحطم هويتك. ومتى فعلت ذلك يتشوق الموت لابتلاعك. لا يوجد ما هو تعسفي فيما قاله الله بأن أجرة الخطية هي موت. فالخطية التي يصفها الكتاب المقدس على أنها التعدي على الناموس (يوحنا الأولى 3 : 4)، تحطم هويتنا وقيمتنا. ومتى ضاعت الهوية وتبددت القيمة، فإن النفس عندئذ تتوق للموت. ذلك هو السبب بالتمام لماذا يعتبر الاكتئاب والانتحار هما المعضلة الأعظم في المجتمع اليوم. والجواب على ذلك بسيط – **الخطية** . هل ترى لماذا يكره الله الخطية بهذا القدر؟ فالخطية هي التي تسلب هويتنا وقيمتنا بوصفنا أولاد الله، والله بالتالي عازم ومصمم على تدميرها.

نلخص هنا وبسرعة ما تناولناه حتى الآن:

1. ملكوت الله هو العائلة.
2. الله هو أبونا ونحن أولاده.
3. هويتنا وقيمتنا كأفراد ترتكز على علاقتنا بالله.
4. ملكوت الله هو ملكوت العلاقات الذي يرتكز على العلاقة بيننا وبين الله والعلاقة بين بعضنا البعض.
5. توفر الوصايا العشر الحماية لهذه العلاقات.
6. انتهاك الوصايا العشر يحطم هويتنا وقيمتنا.

5. الأزمة العائلية

التقيت بصديق لي واستطعت من خلال ملامح وجهه أن أدرك على الفور أنه يعاني من أزمة عويصة. والتورم الذي ظهر تحت عينيه فضح محاولاته الجادة للظهور بمظهر المتماسك لأعصابه. فسألته: "أأنت بخيرٍ؟"

وسرعان ما كشَفَت كلماته عن سبب الأزمة التي كان يعاني منها إذ قال بحسرة وألم، "لقد انفصلت عن زوجتي للتو". وإذ بدا أن الألم يعتصر قلبه واصل قائلاً: "لم أتخيل أن الأزمة قادمة في الأفق". ومن ثم تبادلنا أطراف الحديث حول التحديات التي كان يواجهها. تم انفجر متدفقاً ليقول: "أنا لا أحتمل فكرة عدم تمكني من رؤية أولادي، فهذا أمر يكاد يقتلني". ولاحظت أنه كان يجاهد للمحافظة على رصانته وهدوئه. وشعرت معه في ألمه، وتمنيت لو أن باستطاعتي مساعدته. وكانت كلماته الأخيرة لي قبل أن نفترق: "لم أعد أعلم ماذا أفعل ولا إلى أين أنا ماضٍ".

وليس غير الذين عانوا مرارة الانفصال والطلاق يستطيعون تفهم المشاعر التي كانت خلف كلمات صديقي الأخيرة هذه. إن الصدمة والغضب والحزن الذي يشعر به الطرف غير الراغب في الطلاق، كثيراً ما قورِنت باختبار من فقد شريك حياته.[8] إن الحقائق المدمرة للطلاق تعني أكثر من مجرد تقسيم الأصول. إنها تعني إعادة تعريف هويتك بالكامل.[9]

وأكبر الضحايا في هذه الحالة هم الأطفال بالطبع. فالعواطف والمشاعر المدمرة التي تمر عبر قلب الأطفال، ليس فقط في وقت الانفصال، بل وخلال عمرهم كله بعد ذلك، هذه المشاعر لايمكن تقديرها بشكل كامل ويتعذر معرفة مداها. أجرى السيد جم كونواي استطلاعاً لمئات من البالغين الذين كانوا أطفالاً لعائلات حدث فيها طلاق، ووصف مدى المشاعر التي مروا بها، على هذا النحو:

---

[8] نيلي زولا وهيناتا سينجر، من كتاب "قصص حقيقية من أرض الطلاق" الصادر في مدينة سيدني سنة 1995، صفحة
[9] نفس المرجع

72 %	غير راضين وغير سعداء
65 %	شعروا بالضجر والعجز
61 %	شعروا بالوحدة والعزلة
52 %	شعروا بالخوف
50 %	كانوا غاضبين
48 %	شعروا بأنهم منبوذين ومتروكين
40 %	شعروا برفض الآخرين لهم كأشخاصٍ
30 %	شعروا بانعدام القيمة الشخصية

أما الأمور الأخرى التي ترتبت على التعرض للطلاق بين الوالدين فتركت النتائج التالية على أطفالهم عندما كبروا:

58 %	يسعون باستمرار للحصول على رضا الآخرين
54 %	حُجب عنهم بعض من ماضيهم ولم يعودوا يتذكرونه.
53 %	يحاسبون أنفسهم بشكل صارم ويحكمون على أنفسهم.
47 %	يُقيّمُون أنفسهم بأكثر مما هم عليه بالفعل.
42 %	يتصرفون بصورة مبالغ فيها على حالات ليس لديهم السيطرة عليها.

40 % ما زالوا يواجهون معضلة في العلاقات. لا عجب أن يقول الله: "إني أكره الطلاق" (ملاخي 2 : 16). ومهما كان السبب للطلاق وكيف يحدث أو من الذي أخطأ في حق الآخر، فإن فقدان العلاقة العائلية هو أمر مدمر لجميع الأطراف. فلا يوجد غالب عندما تنهار العلاقات الأسرية. ولكن هذا هو بالضبط ما حدث في السماء. فقد تمزقت عائلة الله بسبب أزمة هائلة عندما انقلب ابنه الحبيب الذي خلقه أولاً عليه.

يقول الكتاب المقدس في سفر الرؤيا: "وحدثت حرب في السماء" (رؤيا 12: 7). إننا إذ نقرأ هذه الآية قد نظن أنها حرب بين ملكين ومملكتيهما. ولكن هذه الحرب المُشار إليها في الآية تسببت في تمزيق عائلة الله. تصور عندما خلق الله لوسيفر وأمسك بذلك الابن الجديد بين يديه الحانيتين. لقد شارك الله عواطفه وقلبه ونفسه مع ذلك الملاك. وأظهر له المحبة الفائقة ومنحه امتياز الخدمة في أرقى مراتبها وسط حكومته العائلية. ولكن ها هو ذلك الملاك يتمرد على خالقه ويتفوه بعبارات الغضب وعدم الرضى. وإذ تَخَفَى برداء الخداع وتستر بظلال الكذب والإفتراء، سمم عقول العديد من أبناء الله الآخرين. ولك أن تتصور الحزن الذي شمل السماء. فذاك الملاك، لوسيفر الذي خُلق كاملاً وبلا عيب، امتلأ الآن بالكراهية ونوايا القتل إذ عزم على تحطيم ابن الله السرمدي. وهذا ما أعلنه المسيح عندما كان على الأرض إذ قال عنه: "ذاك كان قتّالا ... من البدء" (يوحنا 8 : 44). وحقيقة هذا الشعور الإجرامي تجلت على صليب جلجثة حيث حاول الشيطان القضاء على المسيح.

من ذا الذي يستطيع إدراك الخسارة التي شعر بها الله لفقدانه لابنه لوسيفر. وصَدى هذا الشعور الذي اعتمل في قلب الله نجده في قصة داود وأبشالوم حين بكى الملك داود على ابنه أبشالوم وناح متأوهاً:

> "فانزعج الملك وصعد إلى علية الباب وكان يبكي ويقول وهو يتمشى: يا ابني أبشالوم، يا ابني، يا ابني أبشالوم! يا ليتني مت عوضا عنك! يا أبشالوم ابني، يا ابني" (صموئيل الثاني 18: 33).

وكان أبشالوم هذا ابناً وسيماً وأنيقاً لداود. ولكنه حاول قتل والده واغتصاب المُلك منه. وانهزم أبشالوم أمام قوات داود العسكرية وقُتل في المعركة. وعوض أن يفرح داود بالانتصار، بكى لفقدانه ابنه المتمرد. فلا يوجد غالب ومغلوب عندما تتحطم وحدة العائلة وتتفكك.

من المهم التأكد من أن هوية الشخص في ملكوت الله وقيمته ترتبطان بعلاقة هذا الشخص بالخالق، أبينا السماوي. فعندما طرح لوسيفر عنه هذه العلاقة، تأثرت قواه العقلية والعاطفية تأثراً مميتاً، وفتح على نفسه فيضاناً غير متوقع من المشاعر والعوطف المظلمة. ولو أننا سألنا لوسيفر قبل تمرده: "من أنت؟" لأجاب بيقين هادئ وبثقة تامة: "أنا ابن الله، وهو يحبني". ولو أننا طرحنا عليه ذات السؤال بعد تمرده ورفضَه لأبيه السماوي، فماذا عساه يجيب؟ فهو ما عادت له هوية، لأنه حطم هويته. ومهما كانت الهوية التي يحاول انتحالها لنفسه من تلك المرحلة فصاعداً، فلن تملأ هذه الهوية أبداً ذلك الفراغ وهذا الشعور بالضياع الذي اختبره نتيجة خروجه عن تلك العلاقة الوثيقة مع أبيه السماوي.

وقد تمنى لوسيفر مرات عديدة لو أنه استعاد ما قد فقده. ولكن كبرياءه منعته من ذلك. وبالاضافة إلى هذا، فقد شعر في قرارة نفسه أنه لا يمكن أن ينال الغفران بعد أن أظهر ذلك التمرد العلني والجحود الوقح. وها هو لوسيفر، الذي تحوّل وأخذ لقب الشيطان أي "الخَصْم"، يقف الآن وحيداً دون أن يجد العطف والحب الأبوي الذي اعتاد عليهما، ودون أن يجد مكاناً يأوي إليه كبيته. وقد اعتملت نفسه بمشاعر التفاهة وانعدام الأمن والخوف والفراغ والغيرة والكبرياء والتبرير الذاتي وحب السيطرة.

لقد اختلطت الأمور على لوسيفر فلم يعد يميز الصواب من الخطأ. كان عليه إعادة معرفة نفسه والتأمل في حالة الفراغ والتفاهة والضياع التي شعر بها. ومثل أي ابن آخر يشعر بالتفاهة، فإن الشيطان يحمل في داخله كافة دلائل وعلامات القلق والخوف والجنون والحاجة المُلِحَّة للحصول على التعضيد والموافقة من أي شخص. وهو يتوق لتوجيه الانتباه لنفسه. ولكي يُشبع ذلك الفراغ ويملأه فإن طبيعته المنحرفة تتلهف لأن تنال العبادة من الآخرين والتوقير والمحبة – أي شيء يخفف عنه ذلك الألم والعزلة والشعور بالضياع وانعدام القيمة – أي شيء. تظهر هذه الحالة التعيسة بشكل مثير للدهشة في أغنية من فيلم "مدينة الملائكة":

العدد الأول

أقضي وقتي كله في انتظار فرصة ثانية
في انتظار استراحة كي أشعر بتحسن
هناك دائماً سبب للشعور بعدم الرضا والقناعة
وهذا شيء صعب
أحتاج إلى شيء يلهيني أو إلى فترة راحة سارة
الذكريات تتسرب من عروقي
اسمحوا لي أن أكون فارغة، وأن أزيح الحمل من فوقي

فربما أجد سلاماً هذه الليلة

العدد الثاني

لقد سئمت من تكرر الأشياء، وفي كل مكان أذهب إليه
أجد هناك عقبان ولصوص يراقبونني
تستمر العاصفة في الإلتواء، وتستمر في بناء الأكاذيب
فأحاول أن أعوض عما ينقصني
فأحاول الهروب مرةً أخيرة، لكن هذا لا يصنع فرقاً
من الأسهل تصديق هذا الجنون الحلو
أوه، هذا الحزن المجيد الذي يجعلني أركع على ركبتي.

وما دام أن الشيطان قد رفض العلاقات بوصفها أساس كل قيمة، فهو لن يستطيع أبداً أن يؤسس مملكة ترتكز على العلاقات. وهذا لم يترك له سوى اختيار واحد فقط وهو أن يُعرَف الشخص من خلال ما يعمل وليس من خلال لمن ينتمي. وأدرك لوسيفر أن مثل هذه المملكة التي أرادها، لن تقوم لها قائمة إذا اعترف كل من ينتمون إليها أن الحياة والحكمة والمحبة تنبع من الله. ولهذا اخترع الشيطان المبدأ القائل: "القوة الداخلية". وذلك لكي يقلل من شأن الله ليجعله مجرد قوة، وبالتالي يكون الشخص غير قادر على إقامة علاقة شخصية مع الله طالما أنه مجرد قوة يمكن استخدامها أو إساءة استخدامها حسبما يحلو للشخص. شخص وأن يهتم كل واحد بمن له منفعة معهم فقط.

ومصير مثل هذه المملكة هو الزوال الحتمي، لأن القوة الحياتية التي تحفظها تخص كائن حي هو الله الذي سيسترد هذه الحياة من أولئك الذين يرفضون بعناد الإعتراف بهويتهم كأولاد الله. وهي زائلة لأنه لا يمكن لشيء أن يزيل الألم والشعور بالضياع الناتج عن رفض هذه الهوية. وفي هذا المجال تنطبق حقيقة ما يصّرح به سفر الأمثال من أنه لا راحة للأشرار.

لو أننا عدنا إلى جنة عدن في هذا النطاق، لرأينا أن الشيطان يبدو ماكراً ومخادعاً من الخارج وهو يحاول أن يعَوّض عن خسارته التي ترتبت على طرده من السماء. ولكن من الداخل فإن الشيطان مشحون بمشاعر الفراغ وانعدام الأمن، تلك المشاعر التي تكافح لتكوين هوية جديدة للشيطان والهروب من هوة اليأس الآخذة في الإتساع.

6. جحيم على الأرض

من أصعب الاختبارات التي يمر بها الإنسان هي عندما يكتشف أن أصدق أصدقائه وأوثق أحبائه يتحول إلى عدو. هذه الصداقة الحميمة ربما استغرقت سنوات طويلة حتى تترسخ وتتلاحم. بعدها تدرك أنك بالفعل تحب ذلك الصديق وتستمتع بقضاء الوقت معه. ولكنك وبعد كل هذا الوقت الممتع من الصداقة الحميمة، تكتشف فجأة أن صديقك هذا يتصرف بشكل غريب بعض الشيء. فتحاول أن تبرر تصرفه وتتناساه وتُقنع نفسك أنه ربما كان مجرد تخيل منك وأن الأمر على حقيقته ليس كذلك على الإطلاق. ولكن إذ يمر الوقت تتزايد لديك الأدلة على غرابة تصرفاته. وأخيراً يدفعك الالتزام لأن تسأل صديقك هذا عن سبب جفائه. وبعد محاولاتك المطوّلَة لاختراق ذلك الحاجز النفسي، تكتشف أن شخصاً آخر أشاع النميمة بينك وبين صديقك وأثّرَ عليه ضدك مما جعله يفسر أفعالك بشكل مختلف، الأمر الذي يتركك مندهشاً مما يحدث.

وتعتقد أنه من المؤكد سوف ينتصر المنطق وأنك ستكون قادراً على إزالة سوء التفاهم هذا بسرعة. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. وإذ تحاول تقديم توضيح معقول، يتهمك صديقك بلا أدنى خجل أو استحياء أنك تحاول التستر وافتعال المراوغة. وفي هذه المرحلة قد تتأثر بمشاعر سلبية مثل الألم والغضب والشعور بالجرح أو حتى الدمار، لأن صديقك هذا صدَّق الكلام الذي قاله آخرون عنك أمامه دون أن يتحدث صديقك هذا بكلمة اعتراض واحدة أو يدافع عنك أو يخبرك بما يحدث. فإذا ثرت وانفعلت لهذا الظلم أو حتى إذا صَمَتّ ولم تنطق بكلمة، فإن صديقك يُترجم ذلك على أنه دليل على أن ما قيل عنك كان حقيقياً وأنهم على صواب فيما قالوه عنك. وهذا أشبه برش الملح على الجرح. وربما أنك، عزيزي القارئ، إذ تقرأ هذا الكلام تعود إلى فكرك ذكرى مؤلمة إذ يتأكد لك واقع هذا السيناريو الذي ظل يتكرر مراراً وتكراراً على هذه الأرض منذ فجر التاريخ تقريباً. وحتى وأنا أكتب هذه الكلمات الآن، وأتأمل في حدَثٍ كهذا، أتوقف لأتساءل مرة أخرى: "لماذا"؟

لا بد وأن معظمنا قد عانوا من جراء أنواع مماثلة من الرفض. وأعتقد أنها يمكن أن تساعدنا وإن يكن بشكل ضئيل، على فهم الكيفية التي شعر بها الله في اللحظة التي تلت أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة. من بين ألغاز الحياة الكبرى أن تعمل كلمات شخص غريب على التفرقة بين ألصق الأصدقاء.

كثيراً ما تخيلت الله وهو يراقب بحرص شديد ابنته حواء إذ وَجَدَت نفسها في وسط الجنة، وفجأة تنخرط في محادثة مع "شخص غريب". لقد قام الله باستثمار وقت طويل في حواء وأظهر لها

دلائل كثيرة على محبته. فهل تتمسك الآن بالأمان والمحبة التي تجدهما في أبيها السماوي، أم تصدق كلام الشيطان من خلال الحية؟ ولماذا لم يتدخل الله ويرسل ملاكاً ليحول دون قطع العلاقة بينه وبين حواء؟ ما من شك أن أسئلة كثيرة تطرح نفسها لاتجد لها جواباً في هذه المرحلة. ومع أنه لا يتسع المجال هنا والوقت لتناول كل هذه التساؤلات والتي يتعذر علينا هنا تناول بعضها على الإطلاق بشكل وافٍ، وربما تظل بلا جواب حتى نرى الله وجهاً لوجه، إلا أن الجواب الرئيسي هو المحبة.

فالمحبة تتيح امتياز حرية الاختيار، حتى وإن كان في ذلك الاختيار ضرر كبير على مانح هذه الحرية. فلو أن الله تدخل في كل مرة يوشك فيها أولاده على الانحراف في طريق خاطئ، فهذا يعني بالحقيقة أنهم غير أحرار على الإطلاق. صحيح أنه يوجد وقت لتقديم الإرشاد والإصلاح، ولكن يأتي وقت أيضاً فيه يعمل صمت الذي يمنح حرية الاختيار، على تأييد وتعضيد كافة العبارات التي نطق بها عن مدى محبته، وذلك لأن المحبة بدون حرية الإختيار ليست محبة على الاطلاق. تلك حقيقة يكافح معها كافة الوالدين في تعاملهم مع أبنائهم. فإذا كان بعد كل نصائحنا وإرشادنا وتوجيهنا لهم، يصّر أولادنا على اختيار ما يحلو لهم ويظهروا عدم المبالاة بما نقوله لهم، فهل نمنعهم لكي نتجنب رفضهم لنا والألم الذي نشعر به نتيجة لذلك الرفض؟ أم نظل نحزن عليهم ونحن صامتون ونتركهم لحرية اختيارهم في رفضنا؟ هذا اختيار صعب بالنسبة للوالدين.

في قوة المحبة الإلهية الغامرة التي يتحلى بها الله، أخذ يراقب ابنته الغالية، حواء وهي تتحول إلى أداة استُخدِمت لتدمر ابنه العزيز آدم. ولا بد ان نسبة الألم في قلب الله وصلت إلى درجة لا تصدق في هذه المرحلة. فهل هذا الألم في قلب الله نتيجة خسارته لابنته، يدفعه للتدخل لإنقاذ آدم؟ كلا. بل المحبة الإلهية ذاتها تحزن حزناً عميقاً وتجعل الله ينتظر في صمت وصبر، ليَثْبُت بدون أدنى شك أنه بالفعل إله الحرية، الذي يمنح الجميع تلك الحرية للاختيار. وبالتالي فهو سيتيح المجال لآدم لأن يختار لنفسه. وحين نتحدث عن اختبار الله للإنسان، لا نريد لأحد أن يعزز الفكرة الخاطئة من أنه تعالى يراقب بلا مبالاة وقائع الاختبار من وجهة نظر سلامة السماء ليرى فيما إذا كان آدم وحواء قد تأهلا ليكونا جزءاً من "النادي السماوي". فالله نفسه كان يعلم تماماً أنه إذا سقط آدم وحواء في الامتحان فسيتحتم عليه وضع وعده الذي تعهد به قبل خلق العالم (بطرس الأولى 1: 20؛ رؤيا 13: 8)، موضع التنفيذ الفعلي بارساله ابنه يسوع المسيح ليبذل حياته عوضاً عنهما، ويظهر لهما صفات أبيه الحقيقية، ويحمل ذنبهما وخطيتهما في جسده، ويجعلها تسحق نفسه وحياته عوضاً عن حياتهما. كان الله يدرك كل ذلك مسبقاً وهو يراقب حواء في صمت ثم يراقب آدم من بعدها وهما يختاران ضد إرادته. أي نوع من المحبة كان متضمناً في ذلك الصمت؟ إن هذا العَرض الهائل للمحبة وهذا الاظهار الرائع للصبر سيُلاشي مرة وإلى الأبد الفكرة الشريرة الخاطئة التي يعززها البعض من أن الله تصرف هكذا مع والدينا الأولين بدافع المصلحة الذاتية.

ناقشنا في الفصل الأول الفلسفة التي احتضنها آدم وحواء عندما أكلا من تلك الشجرة. كما ناقشنا في الفصل السابق الخليط المأسوي للمشاعر التي أدت بالشيطان لتلفيق المفهوم المراوغ من أننا نستطيع العيش من دون الله وتشكيل هوية خاصة بنا من خلال ما نحققه من انجازات. وحتى بينما كانت العصارات الهضمية في أمعاء كل من آدم وحواء ما تزال تَهضم الثمرة المحرمة، كانت سحابة معززة من الشعور بالتفاهة والذنب تغلف ببطء عقليهما وتعكر صفو العلاقة الجميلة السعيدة بين الله والإنسان. إن لعنة شجرة "الدوراسيل" قد بدأ مفعولها الغادر، فخلال فترة قصيرة من الوقت سيطر الخوف والشعور بالذنب على آدم وحواء. فإلى جانب الشيطان وملائكته، ارتكبا هما أيضاً ما أصاب عقليهما وعواطفهما بمشاعرالانتحار. لقد فقدا هويتهما وقيمتهما،

وما عاد من شيء يستطيعان فعله ليستعيدا ما فقداه. لم يستطيعا العودة إلى نَيل رضى الله. فقد فصما عري الشركة والعلاقة ولم يكن سوى الله وحده يستطيع استعادتها لهما. تلك حقيقة توضح نفسها بنفسها حتى ونحن نتأمل في اختبارنا الخاص. فإذا انتهك أحد علاقة ما، وفصمها معنا، فإن القدرة على استعادة تلك العلاقة تقع على عاتق الطرف غير المخالف لأن الطرف المذنب قد تخلى عن كل سلطة ومسؤولية في تلك العلاقة.

من المهم لنا في هذه المرحلة أن نتذكر ما تناولناه في الفصل الثاني بأن الله هو مصدر الحياة والحكمة والفرح. وقد فصل آدم وحواء الآن نفسيهما عن ذلك المصدر إذ صّدقا الكذبة القائلة أنهما يمتلكان في داخلهما كل ذلك. وما عادت قوى التفكير عندهما قادرة على أن تُستخدم بموضوعية وبدون أنانية، لأن عقليهما أصبحا على انسجام تام مع الشيطان ولم يعودا قادرين على اكتشاف الأكاذيب التي يخبرهما بها الشيطان. ويبدأ الشيطان بشحنهما بالنظريات الخاطئة عن صفات الله، وفي الوقت نفسه يحاول إقناعهما بأنهما رديئين ويستحقان الموت، وأنهما عديما النفع والقيمة. وما زال الشيطان دائب حتى الآن على تدمير شعورنا بالهوية، وذلك من خلال ترويج الأكاذيب عن الله وعن ذواتنا. وطالما نحن صدقنا أكاذيبه عن الله وعن ذواتنا، فلا يمكن إعادة مصالحتنا مع الله. إن الطريقة الوحيدة التي نستعيد بها علاقتنا وشركتنا مع الله هي من خلال التعرف الحقيقي على صفاته التي تجلّت وأُعلِنت في ابنه.

وبهذا يكون ذلك الغريب الشرير قد فرّق بين أصدق وألصق الأصدقاء. ويأتي الله ليزور آدم وحواء ويناديهما، إلا أن ذلك الصوت الذي اعتبراه قبلاً أحلى صوت في الكون كله، يثير فيهما الآن الخوف ويحاولان الاختباء من الله وهما يشعران بالرعب واليأس. لقد نجح الشيطان في برنامجه.

تخيل عودتك من العمل إلى البيت ذات يوم وأنت تتوقع بفرح أن يركض طفلك صوبك ويلقي بنفسه بين أحضانك وهو يهتف: "عاد والدي. عاد والدي"، كما عودته دائماً وكما اعتاد هو أن يفعل كل يوم. ولكنك في ذلك اليوم إذ تقترب من البيت تجد أن ابنك الحبيب لم يركض للقائك والترحيب بك كالمعتاد، وإذ تشعر ببعض الحيرة، تدخل من الباب الأمامي فتسمع صرخة خافتة من الرعب ثم صوت أقدام صغيرة تركض بسرعة إلى الحديقة للاختباء. وتدرك على الفور أن شيئاً ما بتر العلاقة. فحيث كانت المحبة يوجد الآن الخوف. ولا يوجد أي أب حقيقي يستمتع برؤية أطفاله يركضون للاختباء لدى سماعهم صوت عودته من الخارج. فهذا أمر مؤلم جداً لأي أب. وهي مأساة بالفعل أن تجعلنا الخطية نخاف من ذاك الذي هو الأكثر محبة وكَرَماً وصبراً علينا، والذي يحب لنا حرية الاختيار أكثر من أي شخص آخر في الكون.

لقد واجه الله معضلة في غاية الخطورة. فكيف له الآن أن يقترب من آدم وحواء ليحدثهما، في الوقت الذي أصاخا فيه السمع لصوت آخر غيره؟ فكل كلمة يقولها لهما الآن سيتم تفسيرها في ضوء آخر شرير. فهما يعلمان أنهما مذنبان ولكنهما مع ذلك لا يشعران بالأمان ولا بالقيمة الذاتية ليُقرا بأنهما على خطأ ويقبلان هذه الحقيقة، سيما وأنهما قد قبلا وصدّقا الأفكار والآراء الخاطئة عن الله الذي هو مصدر الحياة والحكمة. فإذ سيطر عليهما روح الشر والشعور بالذنب وعدم الأمان، داخلهما روح التحدي بعد أن فقدا القدرة على التفكير المنطقي الصادق.

إنني أتعجب من محبة الله التي تتجلى في صبره. لقد نادى الله آدم: "أين أنت؟"، ليس لأنه لم يكن يعرف أين هو، بل بالأحرى ليتيح لآدم الفرصة لمواجهة ما فعل: "أين عقلك يا آدم؟ ما الذي حدث لهويتك؟ الأمور والأفعال الجسدية غالباً ما تشير إلى ما هو روحي وتمثله. واختباء آدم وحواء جسدياً يظهر بشكل واضح الاختباء الذي يدور في عقليهما. لقد تخفيا خلف الخداع

والكذب ليتهربا من ضرورة مواجهة الحق الذي بدا لهما مخيفاً جداً. حاول الله مساعدتهما على تشخيص الداء لكي يأتي لهما بالدواء المبارك .

جاوب آدم على سؤال الله بالادعاء أنه كان خائفاً إذ علم أنه عريان. وهذا الاعتراف من جانبه له مدلولاته في ضوء ما جاء في تكوين الأصحاح الثاني: "وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لايخجلان" (تكوين 2: 25). كان آدم عرياناً قبل أن يتناول من الثمرة المحرمة ولكنه لم يكن يشعر بالخجل. والإشارة هنا في هذه الآية هي إلى حقيقة أنه شعر الآن بالخجل بعد العصيان وزوال النور الذي كان يسترهما. وكلمة خجل العبرية (بيوش) تعني أيضاً "محتار أو مرتبك أو مُحبَط". فقد أصيب آدم بالحيرة والشعور بالذنب والارتباك. واختلط عليه الأمر بالنسبة لهويته - من هو؟ وداخله شعور عميق بالذنب بخصوص ما فعل. وقد سعى الله الآن للتركيز على شدة الألم الذي كان آدم يُشعر به، فسأله قائلاً: "من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟" لم يسأله الله: "كيف عرفت أنك عريان؟" بل بالأحرى: "من أعلمك أنك عريان؟" لقد كان الله يحاول أن يُعرِّف أدم بالمحَرّض على الأكاذيب التي قيلت له. أي "من الذي يدفعك للهرب مني؟" من الذي دخل بيني وبينك؟"

ثم وجّه الله السؤال إلى آدم مباشرة: "هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟" وكان ذلك سؤالاً بسيطاً يتطلب الإجابة بنعم أو لا. ولكن الآن إذ تشوش فكر آدم، بدأ يعتبر أن الله أناني ومنتقم. وفي الوقت ذاته نظر آدم إلى نفسه على أنه غبي وعديم القيمة في نظر الله، ظن أنه إذا أجاب بنعم سيُعاقب عقاباً عسيراً إذ أنه يؤمن الآن أن الله هو إله منتقم. وإذا أجاب بالنفي فيظن أنه سيُعاقب مرتين، الأولى لأنه أكل من الشجرة، والثانية لأنه كذب. فإذ علم آدم أنه ليس من مَخرَج من هذه الورطة، حاول الدفاع عن نفسه وتبرئة موقفه. فقال، "**المرأة** التي جعلتها معي **هي** أعطتني من الشجرة فأكلت". فإذ أُمسِك آدم في خطئه، وضع اللوم على حواء وعلى الله في ذات الوقت. ولنا أن نتصور الصدمة البالغة التي انتابت حواء على هذا الرجل الذي تعهد منذ فترة وجيزة أن يواجه معها النتائج والعواقب مهما كانت. ولكن ها هو في أول امتحان يُثبت تقاعسه. لا يمكن للخطية أن تُحَوّل المذنب إلى بطل ينكر نفسه في سبيل مساعدة غيره وتعضيده. فالخطية تدفع كل واحد للدفاع عن نفسه وتبرئة ساحته.

لا نود أن تفوتنا نقطة التركيز الأساسية. رد فعل آدم كان واعزه الشعور بالذنب وعدم الأمان، بالاضافة إلى فكرته المغلوطة عن الله والشعور بالكبرياء. والآن إذ لم يعد يرى نفسه ابناً لله، كان عليه أن يتبنى الفلسفة القائلة: "إن لم أدافع عن نفسي، فلا أحد سيدافع عني". وهو يفكر هكذا لأنه ما عاد يؤمن أن له أب. تلك هي المأساة الكبرى للخطية. فكيف لله أن يُظهر لآدم أنه كوّن فكرة مغلوطة عن أبيه وأنه هو (آدم) ليس غبياً ولا عديم القيمة كما يفكر في نفسه؟ كيف لآدم أن يدرك التقييم الصحيح لوضعه في حين أنه فقد القدرة على التفكير الموضوعي؟ الله هو المصدر الوحيد للحكمة الحقيقية. ولكن آدم فصل نفسه عن ذلك المصدر. وحتى وإن استطاع آدم التفكير، فكيف لتفكيره هذا أن يخلو من خليط الشعور بالذنب والكبرياء – ذلك الشعور الذي يرفض بشدة كل ما يمثل الحق والصدق؟ لم يستطع آدم تحمل أن يقول له الله أنه مخطئ، حتى وإن كان ذلك بمحبة ولأجل مصلحته، وذلك لأن شعوره بعدم الأمان يعرقل قدرته على التفكير السليم.

صلاتي المخلصة، عزيزي القارىء، أن ترى حقيقة الأمر. فعندما أخطأ آدم وحواء وفصلا نفسيهما عن الله كانا في حالة هلاك لا عودة منه إذ سيطر عليهما روح الشيطان تماماً. وفي قلبيهما كانت توجد البذار التي كانت ستقود أولادهما للانضمام إلى الشيطان والملائكة الأشرار في شراكة يائسة تهدف إلى قتل ابن الله في أورشليم. ومع أن هذا لم يُعلَن كاملاً أو يَظهَر في

صورته الشاملة، إلا أنهما ما عادا يريدان أن يكون لهما أي شأن بالله أو بملكوته. بل لقد كرها الله بالفعل، وإن لم يدركا ذلك تماماً.

قد يساورك التساؤل في هذه المرحلة: "تمهل قليلاً. فإنك تتخطى بالأمر حده. لقد كان بالفعل لديهما معضلة، ولكن إن قلنا أنهما يكرهان الله بصورة كلية، فإننا بذلك نعطي الموضوع اكبر من حجمه". ورداً على هذا أقول أنه علينا أن نتذكر دائماً أن الله هو مصدر كل صلاح ومحبة وحكمة وليس القلب البشري. فإذا نسينا هذه الحقيقة المهمة، لا يمكن أن تكون قراءتنا لهذه القصة صادقة، ولا يمكن أن نكون قد فهمنا أنفسنا حقاً. فالكتاب المقدس واضح جداً حول هذه النقطة. لاحظ الآيات التالية:

> "لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله، إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله، لأنه أيضاً لا يستطيع" (رومية 8 : 7).
>
> "ليس بار ولا واحد. ليس من يفهم، ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معاً. ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد" (رومية 3: 10 و11).
>
> "القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس، من يعرفه؟ " (إرميا 17 : 9).

يعلن الكتاب المقدس أن عقولنا في حالتها الطبيعية تكره الله، أو أنها في حالة حرب مع الله، وأنها متمردة عليه ولا تخضع لشرائعه. ويستحيل على عقولنا التخلص من هذه الحالة. لقد اكتشفت أنه في اختباري أنا الخاص وفي اختبار العديد غيري ممن شاركت معهم هذا، أنه يوجد ميل قوي لمقاومة هذا الحق. وروح المقاومة تلك التي تجعل الطبيعة البشرية تكره الله، ما هي إلا صدى مباشر للمقاومة نفسها التي أظهرها آدم تجاه الله عندما وجّه اللوم لحواء ولله، عوض قبول مسؤولية عمله وفشله. وشعور آدم بعدم الأمان هو ما ورثناه نحن، مما يجعلنا غير أكفاء لمواجهة الحق، تماماً مثلما حدث معه. فإذا وجدت نفسك تقاوم هذه الفكرة، اسأل نفسك لماذا تشعر هكذا؟ إذا كنت تشعر بالأمان في داخلك فلا ينبغي أن تستاء مما أقول على الإطلاق. إن شعور آدم بعدم الأمان والفراغ هو ما ورثناه نحن. فهذا كل ما استطاع آدم أن يعطينا وليس أكثر.

إذا استطعت قبول حقيقة أن الطبيعة البشرية معادية لله، سيكون أسهل عليك فهم ما أقول. في سياق ومضمون خطة الله لفدائنا توجد حرية واسعة في إدراكك أنك لا تستطيع من نفسك أن تفعل الصلاح. ويمكنك أن تتوقف عن محاولاتك. وتتوقف عن لوم نفسك عندما تُعَبّر طبيعتك الشريرة عن كراهيتها لشخص آخر أو الإساءة إليه عاطفياً أو جسدياً. ولكني سأرجئ الحديث عن هذا للفصل القادم. نعود الآن إلى آدم وحواء لنرى أن كسر الحاجز بينهما وبين الله لم يكن بالأمر السهل. ولكي يتعافيا، ولكي تتم عملية استرداد أطفالهما، فهذا يتطلب عدداً من الأمور:

1. وسيلة ما لمنح الحكمة للجنس البشري لكي يدركوا حالتهم الميؤوس منها، مع محاولة توجيههم في المسار الصحيح دونما انتهاك لحرية اختيارهم.
2. طريقة ما لإقناعهم أنهم قد عزوا فكرة خاطئة عن صفات الله وملكوته، وأن الله يحبهم حقاً ومساعدتهم لمعرفة صفات الله الحقيقية.
3. طريقة ما لإزالة شعورهم بالذنب وبعدم الأمان واستعادة هويتهم الحقيقية وقيمتهم بوصفهم أولاد الله.
4. طريقة ما لاستعادة شعورهم بالهدف وسبب وجودهم (هويتهم).

5. كل ما تقدم من نقاط احتاج إلى وقت. لقد خسر آدم وحواء حياتهما ولذلك كانا بحاجة إلى نظام دعم للحياة لكي ينالا الوقت حتى يختارا ويقررا.
6. وبينما يفعل الله كل ذلك، عليه أن يحافظ على العدالة. فهو لا يستطيع تجاهل تمردهما ويقول أن كل شيء على ما يرام. ففي حين أن الله في رحمته وعطفه لا يسمح بإيقاع الجزاء الكامل المترتب على اختيارهما، فقد كان من المتحتم على آدم وحواء أن يدركا النتائج المترتبة على اختيارهما كي يتسنى لهما استيعاب الخطأ في ما اقترفاه.

وعلينا هنا التركيز على نقطة مهمة وهي حقيقة أن الله لم يتفاجأ بدخول الخطية، إذ أن الآب وابنه الحبيب كانا قد قررا ماذا سيفعلان، لأن الخطة كانت قد وُضِعت مسبقاً – خطة شاملة بما فيه الكفاية لمواجهة هذا الموقف اليائس.

7. السماء شريان الحياة

في محاولة منهم لشرح أعلى شكل ممكن من الحب البشري، ابتكر الإغريق قصة أدميتوس وألكستيس. وفي رسالته إلى أهل رومية، يلمح الرسول بولس إلى هذه القصة فيقول:

> "فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت" (رومية 5: 7).

تحكي هذه القصة أن الملك أدميتوس كان يشتهر بكرمه وعدله، وكان الجميع في جميع أنحاء مملكته يحبونه. طُرِد الإله أبولو من جبل أوليمبوس بواسطة والده جوبتر وأخبره أنه يجب أن يتخلى عن إلوهيته وأن يصبح إنساناً وأن يخدم البشرية كعبدٍ. فعندما جاء إلى الأرض، وجده الملك أدميتوس فقيراً يستعطي، فأشفق عليه. فأخذه وأطعمه وجعله راعياً لأغنامه واعتبره ابناً له. وبعد مرور 12 شهراً، تحوَّل أبولو إلى حالته الأصلية كإله وشكر الملك أدميتوس على مساعدته وقال له: "إن احتجت مساعدتي في المستقبل، كل ما عليك فعله هو أن تطلب مني ذلك".

وبعد مرور بعض الوقت عاد أبولو ليخبر أدميتوس أن هاديس، إله العالم السفلي، سيأتي قريباً ليأخذه. وقال أبولو أنه أبرم إتفاقاً مع زوجته بيرسيفوني، زوجة هاديس، أنه إذا تم العثور على شخص يموت بالنيابة عنه، فلن يحتاج إلى أن يموت.

فذهب أدميتوس إلى والديه وسألهما إذا كانا مستعدين أن يأخذا مكانه. فقالا له: "نحن نحبك يا ابني، فأنت إنسان صالح وطيب، لكننا نحب حياتنا أكثر، وليس باستطاعتنا أن نموت من أجلك". ذهب الملك في كل مكان بحثاً عن شخص على استعداد أن يموت من أجله، لكنه لم يجد أحداً. فاستسلم أدميتوس لقدره، وفي تلك اللحظة صرخت زوجته ألكستيس قائلةً: "أيها الحبيب أبولو، لقد باركت زوجي وأكثرت سمعته وثروته عشرة أضعاف في مملكتنا بأكملها. إن أدميتوس حقاً هو إنسان صالح، وشعبه يحتاج إليه كثيراً وينبغي أن يعيش! فأنا مستعدة أن أموت عنه كي يعيش هو". وبالفعل ماتت. وناحت كل الأرض على الزوجة الصالحة – زوجة الملك الصالح – والتي كان شعبها يحبها حباً جماً إذ ضحت بحياتها لكي يعيش ملكها. وعندما تراءت أمام بيرسيفوني أشفقت عليها وأخبرتها أنها ستعيش مرةً أخرى كمكافأة لها على إخلاصها لزوجها. وبعد ذلك وبينما كان أدميتوس وألكستيس يتقدمان في السن، كافأهما أبولو أيضاً على إخلاصهما وأمانتهما، وعندما جاء إليهما الموت أخيراً في شيخوختهما، كانا مستعدين لملاقاته.

قال الفلاسفة اليونانيين متعجبين تعليقاً على هذه القصة: "هذا هو أعلى شكل ممكن من الحب الذي يوجد – أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه". العديد من الناس يربطون بين هذه القصة وبين ما قاله الربّ يسوع في إنجيل يوحنا:

> "ليس لأحد حب أعظم من هذا: أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه" (يوحنا 15: 13).

إلا أننا لا نجد في هذه القصة تعبيراً عن علو محبة الله، وإنما تعبيراً عن أن محبة الإنسان هي محبة محدودة. يقارن الرسول هذه القصة البشرية التي تعبر عن حدود محبة الإنسان ويقول:

> "فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت. ولكن الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا. فبالأولى كثيراً ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب! لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته!" (رومية 5: 7 – 10).

لقد أظهر الله عمق محبته إذ أنه سمح لابنه أن يُجرَح لأجل معاصينا، وأن يُسحَق لأجل آثامنا. لقد أعطى ابنه لأعدائه الذين كانوا يكرهونه ويحتقرونه، وذلك بسبب محبته العظيمة وتحننه عليهم. هذه ليست محبة بشرية، بل محبة إلهية.

قبل خلق هذا العالم دخل الآب السماوي مع ابنه في محادثة جادة: "وتكون مشورة السلام بينهما كليهما" (زكريا 6 : 13). في ذلك الوقت وُضِعت الخطة لايجاد الترياق فيما إذا عصى الجنس البشري واختار التمرد على الله. والآن وقد أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة، فقد حان الأوان للعمل ووضع الخطة موضع التنفيذ. ومن ذا الذي يستطيع أن يُقدر مدى المعاناة والألم الذي شعر به الله؟ فهل يسمح لابنه الحبيب أن يكون هو البديل عن آدم وحواء ويدفع جزاء تعديهما ويعاني نتائج اختيارهما الخاطئ؟ هل يسمح لابنه أن يأخذ على نفسه تفاهتهما ويأسهما ويموت نيابة عنهما؟ هل يترك ابنه يعاني فقدان الهوية التام ويفصل بنوته عنه بحيث تُنتزع من صدره عبارة الألم والمعاناة، "إلهي إلهي، لماذا تركتني"؟

وإذ أكتب أنا الآن هذه الكلمات أتطلع صوب ابني الذي يجلس مقابلي في هدوء. وإذ أنظر وجهه الجميل أشعر بالفرح ويعتمل قلبي بالمحبة التي أكِنَها له. ثم أتخيل نفسي أمام قرار مثل القرار الذي اتخذه الله بأن أسمح لابني هذا أن يعاني عقاب الموت الذاتي المتعمد نيابة عن أشخاص يكرهونني ويكرهون كل ما أمثله. وأعترف أنني لم أستطع الاسترسال في هذه الفكرة. فمجرد التفكير في التضحية بابني هكذا، تكاد تجعلني أفقد وعيّ وأتهاوى. ويعود بي التفكير للتأمل في المأزق الذي واجهه الله والقرار الصعب الذي كان عليه اتخاذه. وهنا أشعر بالامتنان العميق له لإرساله ابنه الحبيب ليموت نيابة عنا، عالِماً تماماً أنني واحد من أولئك الأشخاص الذين، إذ كانوا قبلاً أعداء الله، عُرِض عليهم الحياة من خلال ذبيحة ابن الله. تلك الفكرة تجعلني أتوقف وأترك كل شيء جانباً لأتعبد له شاكراً محبته وتضحيته.

وكم أندهش أن ابن الله الذي تجسد فيما بعد ودعيَ يسوع، كان مستعداً ليموت نيابة عنا. ويخبرنا الكتاب المقدس أن الله يعرف النهاية من البداية، وأن الآب السماوي شارك تلك المعرفة مع ابنه. فبمجرد أن أصابت الخطية الكون، كان يعرف تماماً ما الذي سيسببه ذلك. لقد عرف المسيح مسبقاً ما سينتظره عندما يتجسد ويأتي إلى تلك الأرض، من رفض واستهزاء وجلد وضرب وكراهية ولعنات وسبٍ وعذابات الصلب وتحمله لخطايا بلايين البشر وذنبهم. لقد رأى كل ذلك

ورأى خطايا الناس عبر آلاف الأجيال توضع عليه ليتحمل عقابها نيابة عنا. ورغم معرفته لكل ما سيصيبه على الأرض رضي بالتضحية قائلاً: "أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت وشريعتك في وسط أحشائي" (مزمور 40: 8). وهو لم يقبل التضحية متردداً بل بالأحرى رغب في القيام بها. فقلبه كان على وفاق مع قلب أبيه السماوي الذي يتوق لاستعادة ابنائه إلى ملء الفرح الذي سيكون هو مصيرهم النهائي. فأي إله هذا؟ وبمن نقارنه وبأية كلمات يمكننا أن نمجده؟

رأينا في الفصل السابق كيف أن آدم وحواء احتاجا إلى نظام دعم وتعضيد للحياة وإلى القدرة على تمييز الحق من الباطل. أحتاجا إلى مساعدة ليفهما طبيعة الله وصفاته والكشف عن أكاذيب الشيطان التي أخبرهما بها عن الله. ولرفض هذه الأكاذيب وفضحها كانا بحاجة إلى بوصلة أخلاقية لمساعدتهما على تمييز الاتجاه الروحي الحقيقي والصحيح.

كل هذه الأمور تتوفر من خلال عطية ابن الله للعالم. وهذا ما أخبر به الله كل من آدم وحواء في تكوين 3 : 15. فإذ وجّه الكلام إلى الشيطان مباشرة الذي تخفى في الحية قال:

> "وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها، هو يسحق رأسَكِ وأنتِ تسحقين عقبه" (تكوين 3: 15).

هذه الآية تحمل في طياتها الوعد والرجاء. فقد وعد الله أن يضع عداوة بين الشيطان وبين المرأة. وعندما يتحدث الله عن المرأة فهو يشمل بذلك كل نسلها أي الجنس البشري بكامله. أي أن الله كان سيجعل القلب البشري يكره الخطية، ويرغب في عمل الصلاح والحق. وهناك سبب واحد جعل الله قادراً على فعل ذلك وهو لأن ابنه كان سيصالح العائلة البشرية من خلال حياته وموته وهو على الأرض. ذلك هو معنى الكراهية أو العداوة الكائنة بين نسل المرأة ونسل الشيطان. ويشير الرسول بولس إلى هذه العداوة أو الكراهية للشر في رسالته إلى أهل رومية على أنها نعمة أو قوة ممنوحة لنا كبشر فقال:

> "ولكن ليس كالخطية هكذا، أيضاً الهبة. لأنه إن كان بخطية واحدة مات الكثيرون فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالانسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين" (رومية 5 :15).

إن المقدرة على اختيار ما هو صواب تأتي مباشرة من هذه العداوة للشيطان والخطية، والتي غرسها الله في قلوبنا من خلال عطية ابنه. وهذه العطية ذاتها تزودنا أيضاً بهبة الحياة التي نحتاج اليها كثيراً. [ونحن إذ نشير إلى الحياة هنا، فالمقصود هو زمن النعمة الممنوح لنا وليس الحياة الأبدية. فالله قد أعطى الحياة لكل شخص هنا على الأرض لكي يختار أو يرفض الحق المتعلق بالله وبملكوته.] ويشير الرسول بولس إلى هذه الحقيقة ذاتها في الأصحاح ذاته من رسالته إلى أهل رومية:

> "فإذاً، كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة" (رومية 5 : 18).

ذلك حق لا يكاد يُصَدّق، إذ أنه يجلب السلام والفرح الذي لا يمكن وصف روعته. الحقيقة السابقة تعني أن كل نَفَسٍ تستنشقه يأتي مباشرة من المسيح يسوع، سواء آمنت بابن الله وبتضحيته أو لم تؤمن. فبفضل حياته ينبض قلبك وتتنفس الهواء لتبقى على قيد الحياة. كافة الوظائف والعمليات التي نشير إليها على أنها غير طوعية من حياتنا، هي في الواقع طوعية من جانب الله. فهو قلب ومحور الحق القائل بأنه فعل ذلك لكي يسعى الناس في إثره ويطلبوه "لعلهم

يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أعمال 17: 27 و28).

ليس الله بعيداً عن أي واحد منا لأننا إنما نستمد حياتنا من حياة المسيح يسوع بفضل شفاعته من أجلنا بموته على الصليب. ربما تشعر أنت أنك بعيداً جداً عن الله، ولكن الحقيقة أنه لا يبتعد عنك أبداً. وما عليك إلا أن تتحسس نبضات وخفقات قلبك لكي تدرك أنه لم يهجرك أبداً.

أضف إلى ذلك حقيقة أن الله يغرس في قلوبنا الرغبة في أن نفعل الصواب، وأن نقاوم الشر. فلدينا حقاً الكثير الذي نشكره عليه. فكر في المرات التي جاءتك التجربة لأن تفعل شيئاً خاطئاً، ثم إذ تأملت ملياً في الأمر عَدَلت عن فعله وتراجعت. تلك هي عطية الله لك، ألا وهي العداوة للشر. الأمر لا يعتمد على إيمانك وموقفك، فسواء كنت تؤمن بالله من عدمه، فأنت ما زلت تمتلك هذه العطية من خلال المسيح عندما تختار أن تمارسها. ويخبرنا الكتاب المقدس أن الله يمطر على الأبرار والظالمين (متى 5 : 45). تأمل في عدد المرات التي أوعز فيها الشيطان لشخص آخر بأفكار شريرة لكي يضرَّك أو يسلبك ممتلكاتك. ولكن العداوة للخطية التي غرسها الله في قلب هذا الشخص جعلته يَعدِل عن شره بل وشجّعَته على عدم الانصياع لايحاءات الشيطان. طبعاً الاختيار ما زال متروكاً لنا في أن نرفض صوت الروح القدس في قلوبنا ونمضي قدماً في ارتكاب الشر. ولكن لولا وجود تلك العداوة للشر، التي زرعها الله في قلوبنا، لما استطاع أحد منا التوقف عن تنفيذ الأفكار الشريرة التي يضعها الشيطان في عقولنا.

يا له من أب عجيب حقاً، ذاك الذي يفعل كل ذلك من أجلنا. فنحن، جنس البشر، كنا هالكين تماماً ومستعبدين لطرق الشيطان الشريرة. وكنا أعجز من أن نساعد أنفسنا للتخلص من حالة البؤس والدمار التي كنا عليها. ولكن أبينا السماوي رفض أن يستسلم في أمرنا، فأعطانا أغلى وأثمن ما عنده، إذ أعطانا ابنه. وسيكون المسيح واحداً من العائلة البشرية إلى الأبد وواحداً منا. وهذه التضحية ستكون هي محور الدراسة والتأمل عبر الأبدية.

وإذ تتأمل في هذه الأمور، فكيف تشعر بخصوص كل ما فعله الله من أجلك؟ إن روحه القدوس يجتذبك الآن لكي تقبله وتؤمن بالحق المتعلق به. يريدك أن تتأكد من محبته العميقة لك، ومن أنه ضحى بكل شيء لكي يستعيدك. أنا لا أستطيع مقاومة ذلك النوع من المحبة، فهي محبة عجيبة تحصرني وتسيطر عليَّ. ماذا عنك أنت؟

مقارنة بين المملكتين

سيكون من المفيد قبل مواصلة القراءة أن نلخص ما يتعلق بالمملكتين المنفصلتين والمتميزتين والكائنتين في العالم، وهما مملكة الله الأبدية ومملكة الشيطان. وكان على آدم وحواء أن يختارا بين المملكتين اللتين عُرِضتا عليهما وهما بعد في جنة عدن. وإذا كان لنا أن نُعَّرِف ما هي المملكة، فهناك ثلاث سمات أو صفات نحتاج التمعن فيها:

1. **الحكومة:** نظام تَحكُم المملكة بموجبه. على سبيل المثال، الديموقراطية أو الديكتاتورية.
2. **العُملة:** وهو نظام القيمة الذي يتمكن مواطنو المملكة بموجبه من تبادل بضائعهم.
3. **المواطنة:** وهي طريقة يمكن من خلالها تحديد من يجوز لهم أن يكونوا أعضاء في هذه المملكة.

ويمكننا المقارنة بين المملكتين بالطريقة التالية:

الصفة	مملكة الله	مملكة الشيطان
الحكومة	عائلة	الأقوى
العُملة	محبة / رحمة / حرية اختيار / إيمان في الله	قوة / ممتلكات / سلطة / إيمان في النفس
المواطنة	ابن لله	الأداء والإنجاز

ترتكز مملكة الله على نظام العائلة. ورأس الحكومة فيها هو الآب السماوي. والعلاقة بين القائد والمواطنين هي علاقة وطيدة وحميمة. ومن الناحية الأخرى، فإن مملكة الشيطان تكاد تكون هي الأقوى. فالأقوى هم أولئك الذين يحكمون. وحتى في النظام الديموقراطي، فالذين يصعدون إلى مركز القوة هم أولئك الأقوى في إعلاناتهم وفي الترويج لبرامجهم ورسالتهم، والأقوى في إقناع الناخبين.

أما مملكة الله فترتكز على قوة وتماسك العلاقات بين مواطنيها. والمحبة فيها هي عُملَة السماء. والمواطنون يشعرون بالأمان في كنف محبة أبيهم السماوي، ولا يحتاجون لإثبات قيمتهم. ويمكنهم التمتع بعشرة واحدهم الآخر بكل براءة وبلا أية برامج أو أجندات سرية ومصالح يريدون تحقيقها رغم التظاهر بغير ذلك. التعرف إلى الله هو أكبر فرح وأعلى طموح (فيلبي 3: 9 و10). ونظراً لأن معرفة الله وحكمته وصفاته هي بلا حدود، فإننا سنظل نتعلم المزيد عنه على الدوام. وسيكون أمامنا دائماً ما نتعلمه عنه. ورعايا ملكوته يتعلمون عن الله مباشرة أو من خلال الأشياء التي خلقها. وبالتالي فإن ملاحظة واحدنا الآخر ودراستنا للطبيعة وللكون الذي خلقه، هو أيضاً يعتبر جزء مُسِّر ومفرح من كوننا في ملكوته. وطالما أن المتعارف عليه بوضوح هو أن الله هو مصدر كل الموجودات، فإن الخليقة بأكملها تتعبد له بامتنان مُفرِح وشكر (رؤيا 14: 6 و7 ورؤيا 4: 1 – 9).

وعلى عكس ذلك، فإن مملكة الشيطان تتاجر بالصفقات والممتلكات. والقيمة والاستحقاق والأهمية، تتقرر وفق إنجازاتنا، وبالتالي فإن تكديس الموجودات والممتلكات هو أمر مهم للغاية لإظهار قيمتنا. وهذه الموجودات والأصول قد تكون على شكلٍ ماديّ أو نفسي أو في نطاق العلاقات. وكلما كان بيتك واسعاً وكبيراً، وكلما امتلكت المزيد من الأشياء، كلما زادت قيمتك. وكلما كان تعليمك عالياً وذات شهاداتٍ رفيعة، وكلما كانت وظيفتك مرموقة، كلما زاد التقدير الذي يراك به الناس.

والناس الذين تتعامل معهم وتتصل بهم، هم في غاية الأهمية بالنسبة لك، لأنهم قد يشكلون دعماً كبيراً لقضيتك. وتعتقد مملكة الشيطان بأن الناس يمتلكون قوة ذاتية في داخلهم، وبالتالي فالسيطرة على الآخرين وامتلاكهم أو استحوذهم، يمكن أن يزيد من قوتك. والمعاملة مع الآخرين وعلاقتنا بهم تصبح أدوات يمكننا من خلالها زيادة كسبنا. وهذا يجعل الحاجة للسيطرة على الآخرين أمراً في غاية الأهمية. وتوجد طرق عديدة للسيطرة على غيرنا من الناس، ومنها التظاهر بالصداقة واللطف. وهذه ممارسة شائعة يستخدمها البائعون والتجار طوال الوقت. وإنجازك لأعمال عظيمة قد ينال إعجاب الناس لينجذبوا إليك ويتبعوك. وعندما تفشل هذه الطريقة في هدف جذب الناس إليك، فيمكنك اللجوء إلى القوة والإبتزاز والترهيب للسيطرة على الآخرين والفوز بولائهم. ولهذا السبب نجد أن العديد من العلاقات اليوم يسودها الألم والحزن، لأنه في كثير من الأحيان، يكون الهدف من انضمام الناس معاً هو زيادة قدرتهم ورفع قيمتهم.

والنقيض الآخر الذي تطرقنا إليه هو ذاك المتعلق بالجنسية أو المواطنة. فأنت تعتبر مواطناً في ملكوت الله بكونك ابناً لله ببساطة. وهذه الحقيقة لا تتغير ولا تتبدل أبداً بغض النظر عن ظروف وصعوبات الحياة. فمواطنيتك آمنة ضمن علاقتك مع الله بوصفه أبيك السماوي. أما في مملكة الشيطان، فأنت تعتبر مواطناً بناءً على ما تنجزه أو لا تنجزه. فكلٌ من الإنجاز والكسل سيَهَبَكَ المواطنة، طالما أن تركيزك الأساسي هو على الإنجاز والعمل. وفي ملكوت كهذا تجد نفسك عندما تستيقظ في كل صباح، تفكر فيما عساك تنجزه في ذلك اليوم لكي تَرضَى عن نفسك. وإذا عرقل الناس جهودك في الإنجاز، تشعر بالإحباط والغضب. ولو أنك وصلت إلى نهاية اليوم وشعرت أنك لم تنجز الكثير، ينتابك شعور بالفراغ، وبالتالي تصاب إما بالإكتئاب أو بمزيد من التصميم. وتصبح الحياة بالنسبة لك عبارة عن دائرة تلف باستمرار حول التفاخر والتفاهة. فإذا حققت إنجازاً ما، ينتابك التفاخر، وإذا لم تحقق ذلك تُصاب باليأس وعدم القيمة. والحياة هكذا بين النجاح والفشل تصبح إما تحفيزاً على التصميم لمزيد من الإنجاز، أو تكون عكس ذلك، أي الخوف من أن ما أنجزته سيضيع هباءً. إنها حلقة مفرغة لا تنتهي أبداً حتى تموت أو حتى تستبدل مملكة بأخرى.

الدورة العاطفية في مملكة الشيطان

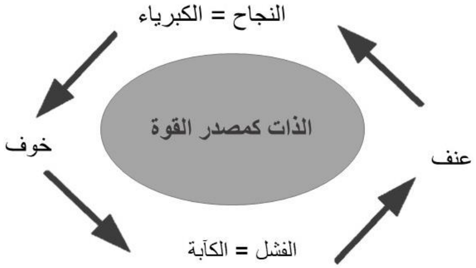

هذه الدورة هي النتيجة البسيطة للاعتقاد الخاطىء بأننا نمتلك القوة في داخلنا، وبالتالي نحن لا نعتمد على أي أحد، ولا نحصل على قيمتنا من مصدر خارج أنفسنا، بل علينا نحن أن ننشىء وننمي قيمتنا الخاصة. وكل نجاح يؤيدُنا ويدعمنا ويثبت وجودنا، وكل فشل يدفعنا صوب الشعور بالعدم.

تعود بي الذاكرة إلى الصراع الذي دار في قلبي عندما بدأت أولاً في إلقاء العظات. وقد شعرت ببركة كبيرة عندما كنت أوّجه الناس إلى حق الكتاب المقدس. ولكنني عندما كنت أقف على الباب لأودع الحاضرين وأصافحهم عند انصرافهم، كان يداخلني شعور بالرغبة في أن أسمع منهم بعض المديح والتأييد والثناء على أدائي أثناء العظة. وكلما كانت عظتي قوية كلما تاق قلبي إلى سماع موافقة الناس وتأييدهم. وكنت أدرك تماماً أن هذا تصرف خاطىء من جانبي. ولفترة ما بعد ذلك كنت، عندما يُثنيّ الناس على أدائي، أقول لهم، "لا تشكروني أنا بل الرب". ولكن هذا بدا مُحرِجاً في كثير من الأحيان، وشعر الناس أنني كنت أتجنبهم أو أدفعهم بعيداً عني. ولكننا حين ندرك ونعترف أن كل ما هو صالح يأتي من الله، وأنه تعالى، يُقَيّمنا ليس وفق أي شيء نقوم به، عندئذ سنشعر بالحرية سواء نجحنا أو فشلنا في أي عمل نقوم به دون أن يداخلنا أي شعور بالعدم والتفاهة والحاجة للحصول على الدعم والتأييد من الآخرين.

الدورة العاطفية في مملكة الله

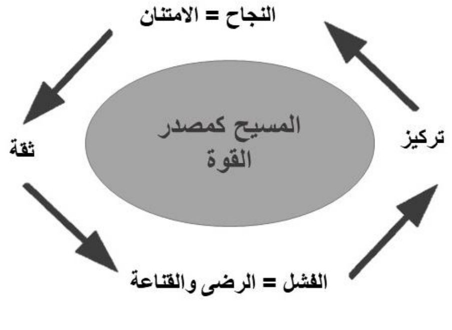

من المهم أن نتذكر أن أعضاء مملكة الله رغم أنهم لا ينالون قيمتهم وأهميتهم من إنجازاتهم، إلا أنهم لا يتوقفون عن الإنجاز، بل هم لهم الطاقة والقدرة على إحراز إنجاز أكبر لأنهم إذا فشلوا فلن يتحتم عليهم مواجهة شعور الخوف من العدم والتفاهة. فهم ما زالوا محبوبين وما زالوا أولاد الله بغض النظر عن نجاحهم أو فشلهم. وتقدم لك مملكة الله أفضل وسيلة لتحقيق أقصى إمكانياتك المحتملة دون المَس بعلاقاتك والتأثير عليها سلباً، ودون تدمير القيم الخاصة بك.

قمنا بإيجاز طبيعة هاتين المملكتين، وسنواصل الآن تتبع كيفية تطورهما في نطاق التاريخ البشري والصراعات والنزاعات التي غالباً ما تواجهنا في عيشنا وحياتنا بين هاتين المملكتين. فالمملكتان تقدمان الحرية، وكلاهما يَعِدُ بالكثير، ولكن أي مملكة فيهما تعزز فيك الشعور بالقيمة الذاتية والاستحقاق الذي لا يتزعزع؟

9. قلب بابل

"في أي شيء أخطأنا؟" تلك كانت صرخة الحزن التى أطلقها الأب الذي كان يجاهد لفهم الواقع المؤلم الذي كان يواجهه الآن. وإذ سعى باستماتة ليجد تفسيراً ما يعلل به عن مسلك ابنه الذي أُدِينَ للتو وحُكِمَ عليه لجرائم الاتجار بالمخدرات والسرقة والقتل. وواصل الأب حديثه قائلاً عن ابنه: "إنه يعلم أننا نحبه، فلماذا تصرف هكذا؟"

مثل هذه الصرخة الحزينة قد ترددت من قلوب كثيرة تفوق كل تصور وتقدير. والعديد من الوالدين قد واجهوا حياة العار والعذاب والحسرة على ابنة أو ابن لهم جنح صوب حياة التمرد والشر. ويمكننا إقتفاء أثر ومصدر صرخة اللوعة والحزن تلك، لنعود بها إلى أبوينا الأولين والمأساة التي ألمّت بإبنهما الأول قايين. ويدرك الوالدون مدى الفرح والسعادة التي شعر بها كلٍ من آدم وحواء لدى ولادة ابنهما البكر قايين واحتضانه بين أذرعهما. فلقد أينعت ثمرة حبهما وتجلت في رؤيتهما لمولودهما الأول وتمتعهما بالنظر إليه ومراقبة حركاته وسماع ضحكاته. وإذ احتضنت حواء مولودها الحديث الذي رأى النور للتو، هتفت قائلة: "اقتنيت ولداً من عند الرب" (تكوين 4: 1). والترجمة الحديثة للآية حسب الأصل هي: "اقتنيت رجلاً (هو) الرب". فقد آمنت حواء أن قايين هذا سيكون هو النسل الموعود به الذي ذُكِرَ في تكوين 3: 15، والذي سيجلب الشفاء والبركة لكل الأمم. ويا ليت كان هذا ما حدث بالفعل. ولكن المفارقة المريرة لحواء كانت أن قايين هذا سيكون هو الإرث الذي سيأتي بالبؤس والدمار والموت لملايين البشر. لقد أصبح قايين هو الرئيس لفئة من المتعبدين والمصلين الذين يديرون اختبارهم الروحي وفق هواهم وشروطهم الخاصة. وهذه المجموعة من الناس يشكلون الجزء الأكبر من سكان العالم، مجموعة من الناس كان الكتاب المقدس سيطلق عليهم لاحقاً الاسم الرمزي "بابل". وسنتتبع في هذا الفصل النزعة الدافعة والمحركة خلف هذه الفئة من الناس، وكيف تؤثر هذه النزعة عليك وعليَّ.

سأل الصبي والده، "لماذا يتحتم علينا ذبح هذا الحمل المسكين البريء؟" فما كان من والده إلا ان أخبر ابنه وأفهمه أن الخطة قد قضت بتقديم ذبيحة لكي تُذكر الجنس البشري بحقيقة مشاعرهم الطبيعية البشرية تجاه المسيح، وبالتالي بحاجتهم إلى التوبة. كما أنها تُظهِر الثمن الذي كان الله مستعداً أن يدفعه كي يتسنى لنا رؤية حالتنا، وأن نطلب المغفرة من خلال عمل الروح القدس وتبكيته. يا لها من عطية مذهلة تلك التي قدمها من أجل خلاصنا. فتقديم الذبيحة كان طقساً يشير إلى الرجاء المُقبِل عندما يأتي المسيح إلى الأرض ليعلن لنا الآب، كما أنه كان يشير إلى الخلف، إلى العار لما اقترفه البشر في حق المسيح منذ السقوط في عدن. لقد كان مُذكّراً معزياً لمحبة الله

العجيبة، وفي الوقت نفسه مُذَكّراً مؤلماً لجحود الإنسان وأنانيته. والاشتراك في خدمة الذبيحة تلك كان سيُوَلّد دائماً شعوراً مختلطاً في نفس من يمارسها. فهو إذ يُحدِّق في وجه الخروف ليرى ويتأمل في عذابه الصامت، سيدرك إدراكاً عميقاً فداحة كُلفَة الأنانية والعناد. وفي كل الذين يتطلعون في وجه حمل الله الحقيقي، سيعتمل في قلبهم الرجاء الذي يختلط دائماً بالمعاناة النفسية التي تأتي من إدراك ما تفعله الطبيعة البشرية للمسيح. واستجابة الإنسان الطبيعية للصليب هي إما إعادة كتابة تاريخ أصل الإنسان بإنكار سقوط الإنسان في الخطية من الأساس، أو وضع المطلب المتعلق بالموت على الله وكأنه شيء يطلبه ليُشبع به غضبه ضد الخطية. وفي غالبية الحالات يتحول الصليب من نور إلى ظلمة، أو الأسوأ من ذلك يصور على أنه رمز للرجاء، ولكنه في الواقع يُقدَّم على أنه رمز للتلاعب والاستغلال الذي يسبب نفوراً وعداوةً.

وبعد أن راقب قايين والديه على مدار سنوات طويلة وهما يذبحان الخروف، ولاحظ في أعينهما دموع الحزن المختلطة بالرجاء والصبر والثقة في مجيء المسيا من نسل المرأة، قرر قايين أنه ما عاد يحتاج إلى التواضع والتوبة. وإذ ركز إنتباهه على التقاعس والفشل البشري الذي تكِشف عنه الذبيحة الحيوانية، عزم قايين ألا يتذكر محبة الله العظيمة في تقديم عطيته الثمينة التي كان الخروف الذبيح يرمز لها. فبالنسبة لقايين كانت الذبيحة لا تعني شيئاً بل شعر أنها تُثير في داخله الشعور بعدم الأمان، ذلك الشعور الذي هو جزء من البكورية التي نالها من أبيه، والذي بدوره نالها من الشيطان. فخروف الذبيحة كان لا يوحي لقايين بشيء سوى أنه أصبح غير مقبول أمام الله من خلال استحقاقه الخاص، وأن الله لا يوافق على سلوكه. ومن الواضح أن الشيطان شجع قايين على اتخاذ الخطوة الجريئة بحذف تقديم الذبيحة من برنامج عبادته، وبالتالي فقد تغيرت علاقته بالله وذلك بسبب إزالة الحاجة إلى التوبة وإبدالها بأعماله الخاصة.

ويخبرنا الكتاب المقدس أن قايين: "قدم من أثمار الأرض قرباناً لله" (تكوين 4: 3). ويخبرنا الكتاب أيضاً أن قايين كان عاملاً في الأرض، أي فلاحاً يزرع المحاصيل للطعام. وكانت تقدمة قايين ترمز إلى جهوده التي أراد من خلالها أن يكسب احترام الله. وقد حوَّل اختبار عبادته من عبادة الإيمان المتواضع إلى الاستعراض المتفاخر، ومن علاقة الثقة الحميمة إلى محاولة الإسترضاء والتعاقد. ومثل هذه الديانة تتجاهل حقيقة أننا لا نستطيع مساومة الله. فنحن ليس لنا حياة في ذواتنا نستند إليها ونتعامل مع الله وفق شروطنا. ومن المؤسف أن قايين تناسى هذه الحقيقة. فقد وعده الشيطان بالحرية من تبكيت الخطية الذي يصاحب تقديم الذبيحة، ولكن بإزالة تقديم الحمل كذبيحة من العبادة، تغيرت ديانة قايين من كونها علاقة الإيمان بالإله الحقيقي، إلى العمل والإنجاز الذي يرتكز على الشعائر والطقوس التي تُقدم لإله من استنباط خياله الخاص. وبهذا التبديل تَقَبَّلَ قايين السُمَّ من شجرة الدوراسيل. لقد ركب على متن طائرة العمل والإنجاز، وبينما هو يظن أنه يشعر ببهجة الحرية، لم يطل الوقت حتى تعطلت الطائرة فسقطت وتحطمت به.

تطرقنا في الفصل الخامس إلى بعض الندوب والجروح العاطفية التي تنتج عن انهيار العلاقات الأسرية. وإليك الملخّص:

- السعي المستمر للحصول على الموافقة والقبول
- الحكم على أنفسهم بشكل صارم
- التصرف بشكل مبالغ فيه حيال مواقف وحالات ليس لهم سيطرة عليها، أي أنهم غالباً ما يكونوا شديدي السيطرة
- يُعانون من مشاكل في علاقاتهم.

عندما أدار قايين ظهره للخطة التي أقرها الله لتخليصه، صار بعيداً ومنعزلاً عن الله. وعلاقته العائلية تحطمت تماماً. وهذه العزلة التي أبعدته عن الله أوقدت في داخله نيران عدم الأمان، ولم يعد روح الله قادراً على تهدئة مخاوفه أو مساعدته على رفض أكاذيب الشيطان، وشعوره بالفراغ والعار تزايد وتضاعف. وكان عليه الآن أن يحذو حذو الشيطان في المحاولة المستميتة واليائسة لاستبدال أو لإزالة ذلك الشعور بتحطم علاقته مع الله. ولكن رغم كافة محاولاته فهو لا يستطيع أبداً إزالة ذلك الشعور العميق بالفراغ ما لم يَعُد أدراجه عاطفياً إلى الله وإلى ملكوته وخطته.

وكانت عواطف قايين المضطربة ستتفجر قريباً، وقد حدث ذلك بالفعل في الوقت المحدد لتقديم الذبيحة عندما جاء مع أخيه هابيل للتعبد أمام الله. فقبِل الله التقدمة التي جاء بها هابيل، إذ أنزل ناراً من السماء التهمت الخروف الذي أحضره على المذبح. وترك الله تقدمة قايين كما هي لأنه لم يرضَ عنها. وهذا جعل قايين يغتاظ ويغضب جداً. الخطية غير منطقية على الإطلاق. فقايين لم يتبع التعليمات، ورغم ذلك تراه فيما بعد منزعجاً انزعاجاً رهيباً عندما رُفِضت تقدمته.

تخيل أنك ذهبت إلى المتجر لشراء كافة المكونات والمواد لتخبز بعض الخُبز في البيت. وبعد أن أعطاك البائع كافة المكونات لصناعة الخبز، سألته أنت عن طريقة وكيفية خلط المواد والمقادير اللازمة للعجين. فأعطاك البائع قائمة بالمقادير والمواد وكيفية خلطها ببعض قبل وضع العجين في الفرن لتخبزه إلى أرغفة خُبز طازجة. وفي البيت التزمت أنت بخلط المقادير حسب الوصفة التي أعطاك إياها البائع. ولكنك عندما شممت رائحة الخميرة النفّاذة، قررت ألا تخلطها مع باقي المكونات وأن الخُبز سيكون أفضل بدونها. ثم وضعت العجين في الفرن وأنتظرت الفترة المحددة حسب الجدول والتعليمات حتى يستوي الخبز. ولما فتحت الفرن وجدت أن أرغفة الخُبز لم ترتفع بل كانت عبارة عن قطعة واحدة جامدة ومسطحة. فهل من المعقول في هذه الحالة ان تثور أنت وتغضب وتُسرع عائداً إلى البائع في المتجر وتنتهره لفشلك في صناعة الخبز؟ بالطبع كلا. ولكن هذا هو عين ما فعله قايين مع الله.

اقترب قايين من نقطة اللاعودة. فهو إذ احتضن وتبنى مملكة الشيطان، حيث تتقرر قيمته وفق مجهوداته وإنجازاته، فإن قدرته على تلقي الإرشاد والنصح أخذت في التداعي السريع. علِمَ قايين أن تصرفه كان خاطئاً. ولكن من السهل على العقل البشري أن يُصاب بالخداع الذاتي فيدفع صاحبه لأن يغضب من الله عوض أن يخضع له. وقد حاول الله بكل لطف أن يساعده ويقوّمَه ويعيد توجيه نظره إلى عطيته الموعود بها في تقديم ابنه ذبيحة عن البشر، ولكن قايين لم يأبه بالتحذير، بل داخلته مشاعر التمرد وتزايدت. وكادت مملكة الظلام أن تتمم عملها الناجح في الاختبار البشري.

وفي هذه المرحلة خضع قلب قايين تماماً لقوى المشاعر العاطفية ذاتها التي اعتملت في قلب الشيطان في السماء. لقد أراد قايين موافقة الله، ولكن بحسب شروطه هو. ومشاعره بالتفاهة والعدم، تزايدت وتفاقمت للدرجة التي كاد معها أن ينفجر. لقد أوقع نفسه في موقف فظيع باشتهاء وطلب الموافقة والرضى من قوى عُليا لكي يُشبع رغبته في القبول والشعور بالقيمة، بينما أراد في الوقت ذاته تجاهل حقيقة أنه مَدين بكل شيء لله وعليه أن يكون متواضعاً وشكوراً لخطة الله الخلاصية من خلال الحمل المذبوح. وإذ ظل قايين يشتعل بالغضب لأنه "أُهِينَ علناً"، حسب رأيه، أمام أخيه هابيل، أخذ يتجادل مع أخيه. فبدأ هابيل يتضرع إلى قايين بخصوص طريقة عبادته، وشجعه على العودة إلى خطة الله التي تقضي بتقديم حمل له كذبيحة وليس أية تقدمة أخرى. وكان هذا آخر ما استطاع قايين أن يحتمله، وشعر بشيء يتحرك في داخله ويثيره. ودفعه شعوره بالتفاهة والعدم إلى نقطة عدم المبالاة. وعندما حانت الفرصة حاز الشيطان على الدخول الحر إلى قلب قايين ليسيطر عليه تماماً ويشحنه بالكراهية الشديدة ضد أخيه وضد العلاقات العائلية التي تناساها وتخلى عنها كلياً. وتجلت فيه الآن مملكة الشيطان بشكل كامل. وقد راقبت

السماء بأسرها جريمة القتل الأولى التي وقعت على الأرض، والتخلي الأول عن العلاقة الثمينة المقدسة. إذاً هذا ما يحدث دائماً عندما يتم التعدي على نواميس الله ووصاياه. حبست السماء أنفاسها، بل وحتى الشيطان وملائكته لا بد وأنهم شعروا بالارتجاف المؤقت وهم يرون هابيل جثة هامدة ودمه يسيل على الأرض فيصبغها باللون الأحمر القاني.

ولكن سرعان ما ينفض الشيطان عنه فظاعة هذا الحدث ليتأكد من إحكام قبضته على عبده القاتل، فجعله يشعر بالذنب العميق وبأن الله لا يمكن أن يغفر له فعلته المشينة هذه. ذلك هو الجنون الشيطاني. فهو يعدنا بالحرية والسعادة في إتباعنا لمسلكه المتمرد، وحالما نتعدى، فهو الذي يرفع صوته مطالباً ومصراً أن يُهلِكنا الله. وفي الوقت ذاته فصوته أيضاً هو الذي يهمس في داخلنا بأننا قد أوغلنا بعيداً في الشر بحيث لا يمكن لله أن يقبلنا مرة أخرى. وصوته هو الذي يزيد شعورنا بالذنب للدرجة التي نتمنى فيها الموت. يا له من شيء محزن أن يتحول ملاك جميل مثله إلى عدو شرير يتربص بالجنس البشري. والآن وقد تخطى قايين الحدود الآمنة بشكل كامل، لم تعد له من دفاعات يحتمي بها، فيدفعه الشيطان إلى أن يصرخ في حسرة ويأس: "ذنبي أعظم من أن يُغتَفر" (تكوين 4: 13 – القراءة الهامشية للآية)، وتلك هي أكثر الكلمات حزناً ولوعة. وقد أتى الله إلى قايين، ليس لكي يقطعه أو يهلكه، بل ليسعى لاسترداده. وسؤاله لقايين: "أين هابيل أخوك؟" لم يكن الهدف منه اتهامه، بل ليمنحه الفرصة ليتوب ويعود أدراجه إلى الله. ولكن من المحزن أن قايين ردد هذه الكلمات المفزعة: "ذنبي أعظم من أن يُغتَفر"، أي أكبر من أن ينال عنه الغفران. لقد صدَّق أكاذيب الشيطان عوض كلمة الله. وما زرعه أخذ يحصده الآن.

نطق الله باللعنة ابتداءً من العدد 11 من سفر التكوين أصحاح 4. وفي الجزء الأخير من هذه اللعنة، أخبر الله قايين بأنه سيكون تائها وهارباً في الأرض. وهذه الكلمات تعكس حالة إنسان يرتجف ويترنح، وتعطي الإحساس برجل لا أمل له ولا مستقبل. وهذه اللعنة لم يطبقها الله من خلال التلويح بعصا سماوية، بل كانت تلك اللعنة كامنة في رفض مملكة عائلة الله، كامنة في رفض العلاقات الحميمة. تعرض قايين للعذاب النفسي لأنه قد خُلق في الأساس من أجل الألفة، ولكنه اختار مساراً آخر. كان يتوق دائماً للحب، ومع ذلك كان دائماً يصدّ ويُنَفّرَ الذين يقتربون منه. تاق إلى العِشرة الوثيقة، ومع ذلك لم يستطع أبداً أن يتيح للناس الإقتراب من مَخَادِع قلبه السرية حيث كان مسكن تفاهته. أراد أن يكون له أصدقاء، ولكنه كان دائماً حذراً من وجود منافس لبسالته وبطولته. وهنا تكمن حقيقة المثل القائل: "لا سلام للأشرار" (إشعياء 57: 20).

يخبرنا الكتاب المقدس أن قايين: "خرج من لدن الرب" (تكوين 4: 16). وقد عاش بعد ذلك من دون الشعور بأن الله قريب منه، وباقتناعه بأن خطيته قد أوصدت باب الرحمة الإلهية، ففي الحقيقة أغلق هو باب قلبه من دون الله. والآن إذ زاد احتياجه أكثر من أي وقت مضى، إلى القبول والرضى والشعور بالقيمة، بدأ في بناء مدينة ليجمع الناس من حوله ويصير لهم زعيماً. قرر أن يُشَيّدَ مبانٍ عظيمة ليستمد قيمته من إنجازاته. وكان سيحيط نفسه بأعمال يديه ليحجب من ضميره ويطمس، على قدر ما يستطيع، دلائل أعمال الله. وكان أيضاً سيشغل نفسه للدرجة التي لا يعود له من وقت للتساؤل عن حالته الداخلية وتفحص قلبه.

وهكذا أصبح قايين القناة التي من خلالها يؤسس الشيطان مملكته على الأرض. ومن نسله جاءت وتطورت سلالة من الناس الذين اتصفوا بكل مظاهر التفاهة وانعدام الأمان والسعي صوب إحراز القوة والنفوذ وتنمية روح السيطرة التي تغار من كل منافس، في مطاردة لا نهاية لها لإثبات الهوية بمعزل عن الله الذي خلق السموات والأرض. وطالما استطاع الشيطان أن يجعل البشر يسعون خلف القيمة الذاتية في داخل أنفسهم، عوض أن تكون بين ذراعي الله القدير، فهو سيتمكن من السيطرة عليهم. وهذا ما حدث بالفعل، إذ عبر توالي عصور الزمن سيطر الشيطان

على فئة من الناس وجعلهم تحت نفوذه، رابطاً تفاهتهم وإنعدام أمانهم بتفاهته هو وإنعدام أمانه، وساعياً لفرض حكمه وسيادته على العالم.

تناولنا بالدرس، في هذا الفصل، قلب بابل، ذلك القلب المُعذب الذي يسعى صوب الهوية والقيمة من خلال الإنجاز، وصوب الموافقة والرضى من خلال مآثره، وصوب التلاعب بالظروف بحيث لا تعود تشكل أي تهديد له. وفي الفصل التالي سنتتبع تطور هذا القلب إذ يتوهج عبر التاريخ البشري.

القسم الثاني: مصيرٌ واحدٌ

– الهوية المستردة

10. تحطيم قيود الدوراسيل

عبر دهور الأزل السحيقة كان للآب السماوي شركة دائمة ووثيقة مع ابنه يسوع المسيح. كان التواصل بينهما مستمراً. ولكن جاء الوقت الذي فيه توشك تلك العلاقة على أن تتوتر وتنقطع. وكانت هناك وقفة صمت احتضن فيها كل منهما الآخر، بينما وصلت شدة العواطف إلى ذروتها. فكلاهما أدرك أن الوقت قد حان، وأن ابن الله سَيَشرَع قريباً في مهمة لإستعادة أبنائه وبناته البشريين. وقد فهم كل من الآب والابن المخاطر والكُلفة المتضمنة في تلك المهمة. ولكن المحبة كانت هي التي تحركهما.

وعلى مدى لحظة وجيزة تطلع الآب والابن بعين النبوة إلى المستقبل لمشاهدةِ تَكَشّف هذه المهمة بكل ما تنطوي عليه: الازدراء، الرفض، الكراهية، البصق، الركل، الجَلد، المسامير – كل هذه العذابات والإهانات تعتبر لا شيء على الإطلاق إذا ما قورنت بتلك اللحظة الفظيعة التي وقفت فيها السماء والأرض في صمت تام لتشاهد الآب السماوي وهو يحجب نفسه عن ابنه، بينما تدحرج على كاهل الابن ذنوب والآم ومشاعرالتفاهة والعدم والتمرد المتراكمة عبر آلاف السنين. وقد وقف الابن يتطلع عبر الزمن ليرى نفسه يرتجف كورقة في مهب الريح إذ تمزق قلبه عندما حجب الآب وجهه عنه بسبب الخطية. لقد كان الآب مع الابن في الظلمة، لكن الابن هو الذي تُرِك ليعاني ويلات وأهوال **الموت** (عبرانيين 2: 9).

وهنا تزايد العنِاق بينهما، فكيف يمكن للآب السماوي أن يُسلّم ابنه لمصير كهذا؟ وعلى مستوى أعمق، فقد ناضل وكافح كلاهما، في تأملهما العميق، مع إمكانية واحتمال الفشل والإنهزام أمام قوة وسطوة الخطية. فابن الله كان سيتخذ على نفسه الطبيعة البشرية، وهذا سيُتِيح الفرصة لخصمه اللدود، الشيطان، ليتغلب عليه. ولم تكن هناك أية ضمانات بالنجاح. يا لها من خطة محفوفة بالمخاطر حقاً، فكيف للآب والابن حتى أن يُفكرا في تلك الوسيلة، والمجازفة بنتائجها واحتمال فشلها؟ ليس غير دافع المحبة هو الذي حثهما على تنفيذ خطة شائكة ومؤلمة كهذه.

وأخيراً انتهت فترة الصمت الطويلة التي بدت أنها الدهر بأكملِهِ، وقد عقد كلاهما العزم على تنفيذ الخطة. وهنا يتقدم الابن ليقف على حافة السماء ليلقي نظرة أخيرة على الوجه المُحِب لأبيه، وبعدها يمضي في طريقه.

تناولنا بالبحث في الفصل السادس القائمة الطويلة والخطيرة التي كان الله سيضطر للتعامل بموجبها إذا كان له أن يُخَلِّص أولاده وبناته على الأرض. وفي الفصل التاسع رأينا تطور مملكة الشيطان في قلوب البشر، وكيف يحكمنا الشيطان ويتسلط علينا من خلال شعورنا بتفاهتنا وانعدام قيمتنا. فإذا كان للمسيح أن يحطم قوة الشيطان تلك وسطوته علينا، فعليه أن يزيل منا ذلك الشعور بعدم القيمة والنفع، وأن يعيد وصل إحساسنا بهويتنا بوصفنا أبناء وبنات الله، وأن يهزم فينا الهوية المزورة التي تصورناها في شجرة الدوراسيل.

ولا بد أن قلب الشيطان قد اعتصر بالهواجس ومشاعر الخوف إذ راقب الملائكة وهم يرنمون وينشدون أناشيد الفرح والسرور للرعاة الذين كانوا يحرسون أغنامهم على التلال، معلنين لهم أن المسيا قد جاء. والنجم المضيء الساطع الذي أرشد الحكماء إلى المزود المتواضع، زاد من هواجس الشيطان وتخوفه. ولك أن تتصور وتتخيل أن الشيطان بعد أن نظر إلى ذلك الطفل الرضيع البريء، أدرك أنه سيخوض معه حرباً ونِزَالا على الدوام. لم يستطع الشيطان أن يُعكر صفو السلام والهدوء الذي استقر على هذا الطفل، بعكس ما فعله مع كافة الأطفال الآخرين الذين ولدوا في العالم. كان الأمر مُحَيّراً بالنسبة للشيطان. فها هو الطفل يسوع مولود أمامه بلحم ودم مثل باقي الأطفال، ولكنه كان ينعم بالسلام العميق الذي استقر عليه، ذلك السلام الذي عجز هو تماماً عن أن يُعكّر صفوه. وأدرك الشيطان أنه في مأزِق وإضطراب.

وذلك الروح المضطرب نفسه هو الذي سيطر على قلب هيرودس، ومن مِثَالِهِ ننال قَبَساً عن الفوضى والإضطراب والاهتياج العظيم الذي يُحرّك ويسود عالم الأرواح المظلم. فالشعور العميق بانعدام الأمن والأمان، الذي سيطر على هيرودس، جعله طُعماً وفريسة سهلة لحملة الشيطان الهادفة إلى إثارة الرعب والتخوف من مملكة السماء. وقد دفعه الشيطان لأن يثير حرباً على مملكة الله، حتى قبل أن يبدأ النزال الحقيقي. ولكن الثقة الهادئة التي كانت في الملك الرضيع لم تتبدل أو تتزعزع، وقد دبرت العناية الإلهية طريقاً لهروب الملك الوليد كي يعلن الحق المتعلق بأبيه، فاضحاً رئيس الظلام، وفي جسده البشري يصد ويحطم قيود انعدام الأمان التي بها استعبد الجنس البشري المحكوم عليه.

وحياة المسيح يمكن تلخيصها في كلمات يوحنا الحبيب: "والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" (يوحنا 8: 29). ومهما عمل الشيطان فهو لم يستطع أن يُعَكِر صفو الشعور بالكرامة والثقة التي تمتع بها المسيح إذ تمسك وتشبث ببنوته بصلابة ومثابرة أثارت الرعب حتى في قلب رئيس الظلام. ولا بد أن الشيطان اهتاج واغتاظ لفشله في جهوده العقيمة ليدفع المسيح صوب الخطية. فها قد جاء أخيراً من استطاع أن يصدَّه. وبعد أربعة آلاف سنة من النجاح في التغلب على كافة البشر، واجه الآن المسيح الذي ثبت وصمد أمامه متشبثاً وواثقاً في بنوته لله. فتلك البنوة كانت هي المفتاح للنصرة، كما كانت الحصن المنيع والأكيد ضد الشعور بالتفاهة العارمة التي أغرقت الجنس البشري فيها. وبالتالي كان يتوجب أن تكون تلك البنوة هي النقطة المحورية في الصراع بين المسيح وخصمه.

انتشرت موجة من الإثارة في بلدة الناصرة لدى سماع أنباء عن وجود يوحنا المعمدان سابق المسيح. وإذ وصلت هذه الأنباء إلى حانوت النِجَارَة المتواضع، أدرك المسيح أن وقت تمجيد الآب قد حان. فما كان منه إلا أن وضع المِنشار والإزميل وأدوات النجارة الأخرى جانباً، وبعد أن احتضن أمه توجه صوب نهر الأردن.

صحيح أن المسيح كان واثقاً في بنوته للآب السماوي، ولكن الصراع الآتي الذي كان سيتم في البرية، كان بمثابة تجربة وامتحان قاسٍ جداً بالنسبة له، أقصى وأصعب من أي امتحان واجه أي إنسان من قبل. فبوابات الشقاء والويل البشري كانت ستنفتح على سِعَتِها في وجهه كما من إنهيار سد ضخم. وكان على المسيح أن يواجه التيار الجارف للتفاهة البشرية ويظل مع ذلك صامداً وثابتاً. فإذا تمكن فعلاً من الصمود، فسيكون هو أول شخص في التاريخ يتمكن من تحطيم سلاسل الدوراسيل. وغنائم ذلك الانتصار تصبح ميراثاً للذين يؤمنون به.

كانت المعركة والمواجهة في البرية هي أساس عمل المسيح حتى الصليب، وإلا فماذا تكون فائدة عطية الغفران إذا عجز الإنسان عن تحطيم قيود شعوره بالتفاهة وإنعدام القيمة؟ وأية فائدة من أجمل إعلان عن المحبة، إذا لم يكن هناك أي رجل أو إمرأة أو طفل لديه القدرة على تسلم تلك الهبة – لا أحد على الإطلاق. ينبغي أولاً التغلب على شعور العدم والتفاهة الذي هو جزء لا يتجزأ من الدوراسيل حتى توضع غنائم النصرة بين أيدي الجنس البشري لكي يتمكن الجميع من تسلم واحتضان العطية التي لا تُقدر بثمن والتي قُدمت على الصليب، وأن يؤمنوا حقاً أن الله يحبهم ويغفر لهم.

يعلم الآب السماوي تماماً بما سيأتي، وهو سيشدد ويُقَوّي يدي ابنه يسوع لخوض المعركة، ليس من خلال عرض قوي للمظاهر، ولا عن طريق استخدام جيش مسلح. فلا شيء من هذا يفلح في مواجهة العدو القادم. فالله سيقدم أفضل أسلحته التي تأتي من خلال القوة النابعة من علاقة شعبه الوثيقة بعضهم ببعض. وإذ خرج المسيح من مياه المعمودية في نهر الأردن، استقر عليه الروح القدس الذي نزل عليه في هيئة حمامة. وانفتحت السماء وسَمِع المسيح صوت الآب السماوي قائلاً ومؤكداً: **"هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"**. كانت تلك الكلمات بمثابة السيف الحاد والسلاح القوي الذي أمكن للآب أن يعطيه لابنه ليخوض به المعركة. فإذ يشعر المسيح بالأمان في كلمة أبيه، فهو سيحارب العدو الماكر ويحطم قيود الخطية نيابة عنا لأننا نعجز تماماً عن تحطيمها بقوتنا الذاتية.

إن مغزى تلك العبارة وهذا البيان يتخطى خيالنا. فحقيقة أن الله يقبل عضواً من الجنس البشري، يعطينا جميعاً رجاءً لا يكاد يُصدق. فمن خلال المسيح يصل الله إلينا جميعاً ليؤكد لنا أننا أبناؤه الأعزاء. وإذا كان لنا أن نرجو قبول عطية الصليب، فعلينا أولاً أن نسمع ونصغي إلى تلك الكلمات الثمينة: "أنت ابني الحبيب الذي به سررت". ومن المستحيل قبول أية عطية من عدوٍ دون التساؤل فيما إذا كانت هذه الهدية ممزوجة بالسم أو مرتبطة بقيود وشروط. ولكن الهدية أو العطية التي تُقَدّم من عائلة مُحِبَةً أو من أحد أفرادها الصدوقين المخلصين، يمكن قبولها على الفور كما هي – عطية بسيطة وطاهرة وآمنة. ولا توجد من وسيلة للاقتراب من الصليب إلا من خلال جسر إيماننا الثابت والمتين في بنوتنا لله. وأي طريق آخر غير ذلك سيؤدي إلى إباحة الخطية بشكل رسمي.

ولا بد أن تلك الكلمات التي سُمِعت من السماء قد أغضبت الشيطان حقاً. فهي قد ذَكَّرَته بما كان هو عليه قبلاً ولكنه فقده. لقد كان هو في السماء ابناً لله. ولكن هذه الكلمات أيقظته الآن لحقيقة وضعه وما هو عليه من العدم والتفاهة. ومع ذلك فالكبرياء لا تتراجع بسهولة، وبالتالي يستعد الشيطان الآن لإطلاق العنان لسيل من التجارب المغرية على المسيح في البرية.

ويخبرنا السجل الكتابي عن المسيح: "أنه كان هناك في البرية أربعين يوماً يُجَرَّب من الشيطان" (مرقس 1: 13). أعتقد أن معظم الناس يجدون صعوبة بالغة لو تعرضوا للتجارب على مدى عشر دقائق فقط، فكم بالأحرى 40 يوماً يُجَرَّب فيها المسيح من الشيطان، الذي كانت له أربعة آلاف سنة من الخبرة والتمرين للإيقاع بالناس في أحابيله وتجاربه الماكرة. ولك أن تتأكد أن

المسيح كان الآن هدفاً لكافة أسلحة الشيطان الجهنمية. فمن ذا الذي يستطيع أن يسبر أغوار عمق هذه المعركة الطاحنة؟ لقد حبس سكان العوالم الأخرى أنفاسهم وهم يراقبون الشيطان يوجه ضرباته المتتالية من التجارب صوب ابن الله. أما بالنسبة لنا نحن البشر، فقد كنا نغُطُّ في سبات عميق وغافلين تماماً عن الموقف البطولي الذي وقفه المسيح لكي يحررنا. فلو أن المسيح فشل هنا، لسُحِقنا جميعاً من جراء قيود وأصفاد شعورنا بالعدم والتفاهة. فالمسيح يسوع كان هو الرجاء الوحيد والأوحد لاختراق تلك الظلمة الداجية التي أحاطت بنا.

وأصارحك القول، عزيزي القارىء، أنني عندما أصل إلى تلك المرحلة من حياة المسيح ونضاله من أجلنا، يتحتم عليَّ أن أتوقف لأفكر وأتأمل فيه. فقلبي يفيض بالإمتنان والفرح للجهود الدؤوبة التي لا تعرف التراجع لهذا البطل العظيم لكي يساعدنا في وضعنا المزري والميؤوس منه. وهذا أشبه بأم أو أب يندفع صوب بيته الذي تلتهمه النيران لكي ينقذ ابنه من الاحتراق والموت. وكاد الشيطان أن يسحقه فكرياً وعقلياً بتجاربه القاسية، ولكن المسيح لم يتخلَ أبداً عن بنوته ولم يُرخ يده أبداً. وتَحَمُل المسيح وصموده هذا، يجعلني أهتف من أعماق قلبي وأصرخ قائلاً: "لابد وأنني أساوي الكثير وأنني ذات قيمة كبيرة". فلا يمكن لأحد أن يفعل ما فعله المسيح إن لم يكن مهتماً بنا حقاً. وما فعله، هو الذي أضفى علينا القيمة والأهمية في نظره. وأعترف أن مثل هذه المحبة تجذبني إليه بشكل لا يمكن مقاومته. بل حتى وإن قاومته أحياناً، فالشكر لله أنه دائماً ما يكون أكثر تصميماً مني.

وعندما كان المسيح في أضعف نقطة، إذ كان جائعاً ومتعباً ووحيداً، وهي أمور تدفع بالإنسان كثيراً إلى المساومة، جاءه الشيطان ليهاجمه في جوهر مسألة الصراع كله: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً" (متى 4: 3). وماذا كان يمكن للتجربة إلا أن تكون حول بنوة المسيح؟ ولم يعلم المسيح إلى متى سيظل في البرية. فالكتاب لا يقول شيئاً حول ما إذا كان الله قد أخبره أنه سيكون في البرية لمدة 40 يوماً ثم ينتهي الأمر. كان المسيح ما يزال في البرية ولم تأته الغربان لتطعمه مثلما فعلت مع إيليا. ولم يسقط له المن من السماء مثلما حدث مع بني إسرائيل في صحراء سيناء. فهل يا تُرى كان مُخطئاً بخصوص الصوت الذي سمعه من السماء؟ سيما وأن الشيطان همس في أذنه بعبارة الشك: "إن أباك السماوي حتماً لا يريد لك البقاء في هذه الحالة فعليك الآن أن تتصرف".

كان الشيطان يستخدم الشهية كوسيلة يحاول من خلالها أن يزعزع إيمان المسيح فيما قاله أبيه السماوي. فقبل ذلك بأربعين يوماً أعلن الله قائلاً: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت". ولو حوَّل المسيح الحجارة إلى خبز، يكون بذلك قد تشكك في كلمة الله. وهذا الشك يكون كافياً لتشويش عقله فيما يختص بهويته. بل وصل الأمر إلى ما هو أبعد، فقد طلب منه الشيطان أن يفعل شيئاً ما ليثبت هويته. فهذا الطلب أن يُحَوّل المسيح الحجارة إلى خبز ليثبت من هو، كان باباً ومنفذاً مباشراً إلى مملكة الشيطان – أي إثبات الهوية من خلال الإنجاز والأداء.

كم منا لم يسقط في فخ محاولة إثبات قيمتنا من خلال إنجازنا وأدائنا؟ فإذ تكون مدفوعاً لإثبات وإظهار أن لديك ما يلزم للوصول إلى القمة، فإنك تتجاهل حاجتك إلى الراحة والنوم وتتناسى الأهم وهو وقت الصلاة ودراسة الكتاب المقدس، وتظل حتى ساعة متأخرة في مكتبك وترجىء أو تتغيب عن الوقت الذي تقضيه مع عائلتك. وكل هذا فقط لكي تحصل على تلك الترقية وهذه المكافأة. فلماذا ندفع أنفسنا بهذه الشدة؟ أعتقد أننا نفعل ذلك في كثير من الحالات، استجابة لذلك التحدي ذاته: "إذا كنت ابناً لله فأثبت ذلك بأداءٍ ما عظيم أو إنجازٍ ناجح".

هل جربت أبداً أنك عندما تستيقظ في الصباح وتريد قضاء بعض الوقت مع الله في التأمل والصلاة، تجد فجأة أن تفكيرك بدأ يجنح صوب كافة الأشياء التي تحتاج إلى إنجازها في ذلك

اليوم، لدرجة أنك تشعر بضرورة المساومة على تلك الدقائق الخمس التي تقضيها في الصلاة. فتضطر إلى المغادرة فوراً إلى مكتبك للعمل والإنخراط في مشغوليات اليوم؟ هل يحدث هذا معك فعلاً؟ لماذا؟ وإذا وصلت إلى نهاية اليوم ووجدت أنك لم تنجز الكثير، فهل تظل راضياً وسعيداً، أم أنك تشعر بخيبة الأمل والاكتاب؟ وهل تشعر ببعض الإضطراب والضيق لأنك أضعت بعض الوقت وأنت نائم على فراش المرض، في حين تظن أنه كان بإمكانك إنجاز أشياء على قائمة أعمالك وبرنامجك؟ هذه الأمور كلها إنما تشير إلى حقيقة أننا جميعاً وبلا استثناء نقع ضحايا لتجارب الشيطان لإثبات هويتنا وقيمتنا من خلال ما ننجز. ونظراً لحقيقة أننا نحمل في أعماق نفوسنا هذا العامل من عدم الأمان الذي انتقل إلينا من آدم وحواء، فإننا قد صرنا عرضة وهدفاً سهلاً لشعورنا بالحاجة الماسة لأن نصنع لأنفسنا أوراقاً روحية ونفسية من التين لنغطي بها أنفسنا. الشخص الذي يشعر بعدم الأمان سيستجيب دائماً للتحدي بإثبات هويته، بينما من يشعر بالأمان لا يبالي أبداً بمثل هذا التحدي. وهذا يُذكّرني بذلك اليوم الذي كنت فيه أسير بصحبة صديق لي معه كلب حراسة بوليسي ضخم وجيد التدريب. وإذ مررنا بمنزل أحد الجيران الذي كان عنده في الحديقة كلباً آخر صغيراً ومن النوع العادي. وحالما رأى الكلب الصغير الكلب الكبير الضخم، أخذ ينبح ويعوي في محاولة لجذب إنتباه الكلب البوليسي الضخم الجيد التدريب. كان الكلب الصغير ينبح ويهز ذيله ويركض هنا وهناك ويقفز عالياً في الهواء. ولكن رغم كل هذه المحاولات فإن الكلب البوليسي لم يأبه به، بل ولم يُدِرحتى رأسه لينظر إلى الكلب الصغير. وشعرت وكأن الكلب الصغير يقول: "تعال أيها الكلب البوليسي فأريك شطارتي، وسأثبت لصاحبي الذي يمتلكني أن باستطاعتي التغلب على كلب كبير مثلك". ولكن الكلب البوليسي كان واثقاً من نفسه ولم يهتم بحركات الكلب الصغير ولا انتبه إلى تحديه. فأية قيمة إضافية كان الكلب الكبير سيضيفها لنفسه فيما لو استجاب للتحدي؟

لهذه الغاية ذاتها كان على المسيح الدخول إلى برية التجربة. كانت العائلة البشرية في حاجة إلى شخص يستطيع أن يُظهر أنه واثق في بنوته لله، ليس اعتماداً على إثباتها من خلال ما أنجزه، بل بالأحرى لمجرد أن الله قد أعلن ذلك. احتاج العالم إلى شخص مثل داود لمواجهة تفاهة جليات الجبار الذي بدا أنه لا يُقهر- تلك التفاهة التي تُكبِلنا بخطايانا وتجعلنا عبيداً للشيطان. ما من شك أن قصة دخول المسيح إلى برية التجربة بها تشابه كبير مع قصة داود وجليات الجبار:

1. كانت للشيطان مزايا كثيرة على المسيح. فالشيطان كائن روحي استطاع التحرك بسهولة، بينما كان المسيح تُعرقله طبيعته البشرية التي أخذها على نفسه (صموئيل الأول 17: 33).

2. كان المسيح يُمثل الجنس البشري بأكمله. ونصرته كانت تعني تحريرنا. تماماً مثلما رمز الشيطان لكافة قوى الشر ونصرته كانت ستعني بقاءنا عبيداً إلى الأبد لقوى الظلام (صموئيل الأول 17: 9).

3. كان المسيح 40 يوماً في البرية يواجه التهكم وتجارب الشيطان، تماماً مثلما تهكم جليات الجبار على بني إسرائيل 40 يوماً (صموئيل الأول 17: 16).

4. جاء الشيطان / جليات بقوته الذاتية، بينما المسيح / داود واجهه باسم الرب، ليعلن صفات أبيه ويفضح ذاك الذي عَيَّرَ صفوف رب الجنود (صموئيل الأول 17: 45).

5. الأسلحة التي استخدمها المسيح بدت ضعيفة بالمعايير الدنيوية، فقد وثق في كلام الله واستخدم ذلك الكلام بكل دقة لفضح عقل الشيطان.

أوجه التشابه مدهشة للغاية بحيث أستطيع تخيل نفسي كواحد من جنود بني إسرائيل يقف على التلة المقابلة ليستمع إلى تعيير جليات الجبار لإلهي ولدیانتي ولي شخصياً: "أين إلهكم؟ لماذا لا تحاربوني إن كنتم أقوياء بهذا القدر؟ أنتم ضعفاء ولا نفع منكم، بل أنتم عار على إلهكم". إن الاستماع إلى مثل تلك الإهانة على مدى 40 يوماً يصيب المرء بالكآبة والحزن. تطلع فقط إلى حجم ذلك الجبار وإلى درعه الذي يلمع تحت أشعة الشمس، ثم استمع إلى صوته المجلجل الذي تَردد صداه عبر الوادي، ناطقاً باللعنات والإهانات. الوضع يبدو ميؤوساً منه، وهناك شعور دفين بالعودة إلى العبودية. فهل الأمر يختلف عن ذلك اليوم؟ فها هي تهكمات الشيطان حول عدم قدرتنا وضعفنا. وتجاربه تبدو قوية وغامرة، ونحن نقع فيها مرة بعد الأخرى، ويبدو أن عودتنا للعبودية لا مفر منها. بل وهناك من يُرَوِّجُون إلى أن عبوديتنا لا يمكن التغلب عليها، وأن الخطية ستظل تقهرنا، فيا لذلك من استسلامٍ محزنٍ لعبودية الخطية. فابن الله الذي جاء من نسل داود موجود في معسكرنا، وهو قد حررنا من قيود العدو. ونصرته في برية التجربة هي نصرة للعائلة البشرية برمتها. ويمكنك أن تختار بين شعورك بأنه ما زال عليك مواجهة جليات الجبار في حياتك، أو أن تقف بتهيب وانتظار وتوقع فوق التلة لتراقب يسوع وهو يفصل رأس التجربة التي تواجهك. إذا آمنت أنك انتصرت بفضل يسوع، عوض أن تكتفي بمجرد التمني أنه سيخلصك، عندئذ تكون قد وجدت جوهر الإيمان ذاته.

أنا سعيد للغاية أن ابن داود هذا قد حررني من سطوة التفاهة، وقد أزال من قلبي التمرد والكبرياء وثَبَّت قدماي على صخر الإيمان بحيث أن من يراني يعلم أنني ابن الله. فهو قد واجه شخصياً التشككات نيابة عني وتغلب عليها بالإيمان في كلمة أبينا السماوي. فاهتفوا وتهللوا معي يا أبناء وبنات الله. لأن المسيح قد حطم قيود الدوراسيل وجعلنا مقبولين في المحبوب.

11. فتح أبواب السماء

بزغت أشعة الضوء واخترقت حجب الظلام لتعلن قدوم الفجر. ولكنها أعلنت أيضاً أن الوقت قد حان للشروع والبدء في المُهِمَة المطلوبة. وكان أبونا إبراهيم ينتظر قدوم ذلك الفجر الباكر. وإذ شهد أشعة الشمس الأولى تخترق الغيوم، تسارعت نبضات قلبه وتلاحقت أنفاسه اللاهثة وهو يُعِدُ العُدة ويجهز لتحضيرات الرحلة. وإذ خرج إبراهيم مع إسحاق ابنه ليشهدا تباشير الفجر الأولى ويبدآ في الرحيل، تسارعت الذكريات في عقل الشيخ إبراهيم. كانت ذكريات محببة كثيراً إليه إذ رسمت في مُخيلته الوقت الذي احتضن فيه ابنه الصغير إسحاق لأول مرة، وشعور الفرح الغامر الذي ملأ حياته بعد أن انتظر طويلاً تحقيق ذلك الحلم بأن يكون له ابن من صُلبه. وتذكر كيف كان الطفل إسحاق يقفز إلى جواره في السرير ليستمع لوالده وهو يحكي له قصة قبل أن ينام كما اعتاد أن يفعل كل ليلة. وكيف استمتع إسحاق بقصص آدم وحواء ونوح وغيرها كثير. هذه الذكريات ضغطت الآن على صدر إبراهيم بشدة، إذ كان يتأمل في المُهمَة التي عليه إنجازها للتو. فقد أمره الله قائلاً:

> "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" (تكوين 22: 2).

لقد كان الله هو الذي أمره بذلك، فأطاع إبراهيم. لم يقدم له الله أية تفسيرات أو أسباب. ومع ذلك أطاع إبراهيم لأنه كان قد اعتاد عبر السنين أن يسير مع الله، وتعلم ألا يقاوم أوامر الله ووصاياه، بل أن يثق به، لأنه أدرك أن الله يعرف ما هو الأفضل. وبالتالي تأكد من حقيقة أن طريق الرب هو الطريق الوحيد الآمن الذي يستطيع السير فيه. ولكن الطريق الذي كان عليه السير فيه هذه المرة بدا صعباً جداً.

ومن ذا الذي يستطيع أن يدرك مدى الصراع الذي احتدم في قلب إبراهيم وعقله وهو يتوجه بخطى حثيثة صوب المكان الذي سيقدم فيه ابنه إسحاق ذبيحة. ولو كان لإبراهيم أن يختار لفضَّل أن يموت هو نيابة عن ابنه كذبيحة. فقد كان على استعداد لأن يفعل أي شيء لينقذ ابنه من ذلك المصير المرعب. وتلاحقت أنفاس إبراهيم اللاهثة وهويجد صعوبة مع كل شهيق يأخذه، وتسارعت نبضات قلبه أكثر فأكثر وهو يحاول جاهداً أن يُخفي ألمه ومشاعره عن ابنه إسحاق. وكان إبراهيم وهو يسير صعوداً صوب قمة الجبل، يتمنى لو كان ذلك كله مجرد حُلم مزعج سينتهي سريعاً. ولكنه سرعان ما تيقظ وتنبه لواقع الأمر، عندما قطع ابنه عليه فجأة حبل أفكاره بالسؤال، "يا أبي، هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟" (تكوين 22: 7). وشعر

إبراهيم بهذا السؤال وكأن سيفاً ماضياً قد اخترق قلبه. فكيف يُجيب على سؤال ابنه الفاحص هذا؟ رفع إبراهيم صلاة سريعة صامتة إلى الله ليمنحه الحكمة. وبعد ذلك أجاب إبراهيم ابنه قائلاً "الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني".

وفوق قمة الجبل أعلن إبراهيم لإبنه، وبكل حزن وألم، فهمه لمطلب الله. كان إسحاق في مقتبل العمر ولا يصعب عليه إن أراد، أن يتغلب على والده ويهرب. ولكن إسحاق كان قد تعلم الطاعة والانضباط وإخضاع رغباته الشخصية لحكمة والده. وراقبت السماء بأسرها إبراهيم وهو يُجهِّز ابنه الحبيب والعزيز عليه ليقدمه محرقة. وبالنسبة للتفكير البشري، ربما نطلق العنان للمجادلات والتشككات المتعلقة بالإيمان. ولكن إبراهيم لم ينحنِ أمام عاصفة التشكك والهواجس، بل وقف صامداً مثل شجرة الأرز أمام الأعاصير الجارفة. ورغم مشاعره الجياشة تجاه ابنه، إلا أنه لم يتخلَّ عن عزمه على تنفيذ فهمه لطلب الله.

وأخيراً تم إعداد كل شيء ووُضِع إسحاق على المذبح ونظر الأب إبراهيم إلى ابنه إسحاق النظرة الأخيرة قبل أن يهوى عليه بالسكين المرفوعة في يده الأخرى التي كانت ستُنهي حياة ابنه العزيز عليه.

وفي هذه اللحظة الحرجة والحاسمة، سُمِع صوت في سكون النهار الباكر: "إبراهيم، إبراهيم، لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تُمسك ابنك وحيدك عني" (تكوين 22: 11 و12).

إذ أتأمل في هذه القصة، لا يسعني إلا أن أضع نفسي في مكان الشيخ إبراهيم الذي أحنت السنون كاهله، وأتخيل أيضاً أنني في مكان إسحاق. وأجاهد لكي أفهم الضغوط التي واجهها كل منهما. ولكن الصورة تتوقف فجأة في مُخيّلتي. فشيء ما في أعماقي يعلو إلى السطح ويحجب الصورة عن أن تتكامل في عقلي. فعاطفياً لم يتمكن تفكيري من مُجاراة مثل هذا المشهد والإسترسال فيه.

ولكي نتفهم رعب المشهد الذي رافق تضحية المسيح بنفسه على الصليب، يلزمنا أن ننال لمحة عن العلاقة التي بين الآب السماوي وابنه. إن جوهر ملكوتهما تشكل بينهما، وفحوى تصرفهما ونظرتهما للحياة تتجلى في المحبة التي يكنها أحدهما للآخر. وإذا لم نضف ذلك البُعد التطبيقي إلى الصليب، فلا يمكننا تفهم الأمر على حقيقته.

> "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3: 16).

إن انفصام أية علاقة حميمة هي أكبر شيء مدمر يمكن للمرء أن يختبره. ففكرة انفصال الشخص عن أولئك الذين يحبهم، تشكل خوفاً عميقاً وتوتراً مستمراً في أعماق كل إنسان. وعندما أسافر أنا وأبتعد عن عائلتي لمدة ولو أسبوع واحد فقط، فإن قلبي يتوق للعودة بأسرع ما يمكن إلى البيت لأكون مع أولئك الذين أحبهم. ولا يوجد في العالم كله ما يجعلني استبدل هذه العلاقة الأسرية التي أستمتع بها مع أفراد أسرتي. فحتى مجرد التفكير في مثل هذا الاحتمال يجعلني أشعر بالمرض. ومع ذلك فعندما نتأمل في قلب الله، وفي تصرفه كما يعلنه لنا الكتاب المقدس، نجد أن الآب السماوي وابنه يسوع المسيح كانا على استعداد لفصم العلاقة الوثيقة والحميمة التي بينهما ليُتيحا لنا فرصة الخلاص ودخول السماء لنستعيد وحدتنا مع خالقنا وابنه.

وقد يقول أحدهم معترضاً: "ولكن المسيح كان يعلم أنه سيقوم ثانية ويستعيد وحدته مع أبيه السماوي، وبالتالي لم يكن الأمر بهذه الصعوبة بالنسبة له". فإذا داعبتك مثل هذه الأفكار، فأقترح عليك أن تسأل المسيح كيف كان شعوره عندما صرخ وهو على الصليب قائلاً: "إلهي، إلهي

لماذا تركتني؟". أو عندما تدحرج إثم العالم المتمرد كله ووُضِع على كاهل المسيح، واضطر الآب في عدالته وبسبب شك البشر في غفران الله للخطايا، أن يحجب عنه محبته وحضوره، فلم يستطع المسيح وسط الظلمة الداجية التي غطت الصليب، أن يرى وجه أبيه المحب الذي طالما كان مصدر فرحه وسعادته عبر الأبدية، إلا أن الخطية حجبت وجه أبيه، ولذلك كان يشعر بالانفصال الكامل عنه. فزال عنه كل رجاء إذ لم يجد سوى الموت بانتظاره، وشعر أنه قد انفصل إلى الأبد عن ذاك الذي أحبه. ولذلك تأوه صارخاً: "إلهي، إلهي لماذا تركتني؟" تأمل فقط في ذلك المشهد ولو قليلاً، فهو مشهد مريع ومهيب بالفعل.

إن الله لم يترك ابنه، لكن ثقل خطايانا على المسيح جعله يشعر بما يشعر به الخطاة بسبب الخزي والعار الذي يصاحب الخطية. قرأنا في الفصل التاسع عن قايين الذي صرخ قائلاً: "ذنبي أعظم من أن يُغتَفر". لقد حمل المسيح ذلك على الصليب من أجلنا. فخطايانا تجعلنا نشعر أن الله ضدنا وأنه يرغب في حقيقة الأمر أن يقتلنا بسبب خطايانا، لكن الله أظهر محبته لنا وسمح لابنه باجتياز هذا الاختبار من أجلنا كي نؤمن نحن أننا نستطيع أن ننال الغفران.

هذا كله يستلزم السؤال: ما مدى جدية الله في إزالة الحواجز التي تفصلنا عنه؟ في قصة إبراهيم وإسحاق نجد تصويراً لله وابنه. من الطبيعي أن نعتقد، مع إبراهيم، أن الله أراد من إبراهيم أن يقتل ابنه. لقد أخبر الله إبراهيم أن يقدم ابنه ذبيحةً، وقد فهم إبراهيم أن الله كان يريد منه أن يقوم بقتله لأن ذلك يعكس فكرنا البشري عن العدالة التي تستحقها الخطية. إلا أن الله أوقف إبراهيم ولم يسمح له بقتل ابنه، مبيناً بذلك أن تلك لم تكن هي إرادته، إلا أن إبراهيم طوال ذلك الوقت أظهر إيماناً عظيماً وكان على استعداد أن يضحي بكل آماله ورغباته الغالية لإرضاء الله. وعندما وفّر الله الذبيحة لإبراهيم كبديلٍ عن ابنه، نرى أن الله بذلك قد قدم أيضاً بديلاً لفكر الإنسان عن العدالة. لقد سمح الله لابنه أن ينفصل عنه كي ما نؤمن نحن أننا قد نلنا غفران خطايانا.

وفي الزلزلة والظلمة التي حدثت في ذلك اليوم، عندما أحجبت أعظم محبة، نفسها عن المسيح بسبب خطايانا، أستطيع أن أتخيل سماع صرخة الآب السماوي ولوعته: **"يا ابني، يا ابني، كيف لي أن أتركك وأتخلى عنك؟"** نجد أمامنا هنا الجحيم بذاته. فكل من الآب والابن اختبرا الجحيم بانفصال العلاقة بينهما من أجلنا. لقد دفعا الثمن الذي كنا نعلم أنه ينبغي أن يُدفَع. وماذا أيضاً يمكن أن يكون عليه جوهر الجحيم إلا كونه نقيض ما تأسست عليه مملكة الله، أي علاقة المحبة الوثيقة؟

ماذا يعني ذلك لنا نحن إذاً؟ يعني أن ابن الله قد ذاق رعب الانفصال عن المحبة الإلهية من أجلنا حتى لا يتحتم علينا نحن أن نواجهها. "أين شوكتك يا موت، أين غلبتكِ يا هاوية؟" (كورنثوس الأولى 5: 55). والآن لا شيء يفصلنا عن محبة الله بفضل ما فعله كل من الآب والابن من أجلنا. لم تكن الذبيحة ولا التقدمة مطلوبة من قِبَل الله، ولكن حتى يتسنى لنا أن نعلم أنه يمكن لنا أن ننال الغفران، دفع الله الثمن الغالي.

إن أبواب السماء ستُفتح على سِعتها أمامنا لأن ابن الله اختبر وعانى ثقل الجحيم الساحق لكي يغلق أبوابه، فيمنع دخولنا إليه ويحول دون مرورنا في اختبار صرير الأسنان والعويل، الذي سيختبره كل من يرفض ما فعله المسيح من أجلنا، ويعاني الانفصال الدائم عن المحبة الالهية. أما التحدي الباقي أمامنا الآن فهو أن نجعل عقولنا وتفكيرنا تقوم بتلك الرحلة التي تعود بنا من حالة الشعور بالتفاهة والعدم والتحدي والعزم (اشتهاء الهوية من خلال ما ننجزه)، إلى مصدر الحياة مرة أخرى، حيث تنتظرنا المحبة وحيث ندرك ونعلم عن يقين أننا أبناؤه المحبوبون. ومع أن المسيح فتح أمامنا أبواب السماء، فعلينا نحن الانتقال من مملكة الدوراسيل (التركيز على الذات والإنجازات) إلى مملكة الله، ومن هوية الإنجاز الشخصي إلى هوية كوننا أبناء وبنات

الله، أي التحول من الخلاص بالأعمال إلى الخلاص بالإيمان. والفصول الباقية من هذا الكتاب ستركز على التحديات والمميزات المتضمنة في رحلة العودة تلك.

القسم الثالث – رحلة العودة إلى البنوة

12. الحياة المدعومة بواسطة الدوراسيل

كان شعور بالتوقع يتخلل الغرفة بينما كنت أجلس بين زملائي الطلاّب في القاعة وأتطلع بشوق إلى سماع اسم مألوف. كنت قد بذلت مجهوداً كبيراً هذه السنة في استذكار المواد الدراسية. ورغم أنني حاولت أن أقنع نفسي بأن الأمر ليس بتلك الأهمية حقاً، إلا أن الرغبة في داخلي تزايدت.

كانت المدرسة تقدم الجوائز للعديد من التلاميذ نظير إنجازهم المتفوق خلال السنة الدراسية. وأثناء حضوري هذا الحفل، كان عقلي منشغل فيما يشبه اللعبة الذكية والمسلية، ويردد في داخلي: "طالما أنك جاهدت بنشاط هذه السنة في أدائك ودروسك، فقد تحصل على الجائزة التالية ... كلا فربما يكسبها شخص آخر غيرك. ولكن الفرصة أمامك..." وعندما حان الوقت الذي يُنادى فيه على الفائز لتسلم الجائزة، أخذت نبضات قلبي في التسارع، بينما داخلني شعور بالتوقع. ثم سمعت الأسماء يُنادى عليها عبر الميكروفون، ولم يكن اسمي بينها بل أسماء أصدقائي. وهنا صار الأمر مسلياً حقاً. فقد وجدت نفسي أصَفِّق بحرارة لكلٍ منهم وهو يتسلم جائزته على إنجازه ونجاحه. ولكن رغم تصفيقي الخارجي، كان يدور في داخلي سيناريو مختلف تماماً، إذ كنت أتساءل: "لماذا ربح زميلي هذا وذاك من دوني؟ لقد جاهدت في دروسي أكثر منهم، ولا أصدق أبدا أنهم يأخذون الجوائز بينما أحرم أنا منها. آه، أعتقد أنني أعرف السبب. فهذا التلميذ أو ذاك ممن أخذوا الجوائز، يَمُتُّ بصلة قرابة لأحد المعلمين، ولهذا اختاروه ليأخذ الجائزة. هناك تلاعب بالنتيجة. فالاستحقاق لا يأتي أبداً بسبب ما تعرفه أو بسبب ما حصَّلته من علوم، بل بالأحرى بسبب قرابتك لهذا المعلم أوذاك". وهكذا واصل تفكيري الشرود هنا وهناك وراح عقلي يتسلى بهذه الأفكار، بينما ظللت أصفق وأصفق لهم وأبتسم محاولاً التظاهر بالتماسك ورباطة الجأش. وسرعان ما انتهى الحفل وغادر المدعوون. وإذ بدأ الوقت يمضي والغيوم تتجمع في الأفق، غادرت أنا أيضاً. وعلى مدى الساعات القليلة التالية، شعرت بالاكتئاب والحزن، بل وببعض الغضب – إنه مجرد يوم آخر يمر وهو مدموغ ومصقول بروح الدوراسيل.

الأمر لا يحتاج لوقت طويل بالنسبة لأي طفل لكي يكتشف أنه إذا أراد أن يكون مقبولاً وذات قيمة في أعين الآخرين، فعليه أن يكون الأول بين أقرانه وزملائه. وهذا يجعلني أرحب بك لأطلِعَكَ على عالم المقارنات. هل سبق لك وأن سقطت في فخ شراء هدية ما لأحد أبنائك في عيد ميلاده، دون أن تُحضر أي شيء لإخوته الباقين؟ ولا بد أنك لاحظت عندئذٍ كيف فُتِحَت في وجهك نيران الجحيم، إذ سمعت ابنك الآخر الذي لم يحصل على شيء يصرخ ويتذمر في وجهك

ويبكي وهو يردد الكلمات في نوبة الغضب قائلاً: "هذا ليس عدلاً". أو إذا ذهبت بأطفالك إلى المنتزه فلا بد وأنك سمعت هذا الطفل أو ذاك ينادي عليك أثناء ركوبه على الأرجوحة أو تزحلقه على المزلجة، ويقول لك بإلحاح: "انظر إليّ وراقبني يا أبي وأنا أنافس إخوتي في السرعة". وإذا راقبت أحد أطفالك وهو ينزلق عبر المزلجة، وابتسمت له، فعندئذ تسمع خلفك صوتاً آخر يناديك: "انظر إلي أنا يا أبي". فتستدير لتراقب ابنك الآخر على الأرجوحة. وإذا حوّلت نظرك عن أحدهم تجد الآخر يناديك لكي تراقبه وهو يلعب. وهكذا تتعالى المناداة من كل جانب: "أنظر إليّ يا أبي"، في دائرة مستمرة بلا توقف، وكل ابن يحاول أن يرفع صوته فوق الباقين. وعندما تجلس مع عائلتك حول المائدة، وتوشك أن تبدأ معهم بتناول الطعام، تسمع ذلك الصوت الجميل والرقيق يقول محتجاً: "أخي أخذ طعاماً أكثر مني. هذا ليس عدلاً. أنا أريد المزيد". ذلك هو جوهر الحياة التي يغلب عليها طابع الدوراسيل. وإذ يتقدم بنا العمر نحاول أن نصير أكثر لياقة وتهذيباً، ولكن تظل المقارنة والسعي لجذب الانتباه هما اللذان يشكلان محور الوجود البشري.

ويبدو أن معظم المناهج الدراسية تَفهم تلك الحاجة إلى المقارنة والسعي لجذب الانتباه. ووجودك بصحبة زمرة من زملائك، بعيداً عن المحبة التي تسود البيئة المنزلية، يوفر الثقافة المثالية لترسيخ مبادىء الدوراسيل. والسنوات الإثنتي عشرة التالية، ستكون عبارة عن تسابق تسعى فيه للتفوق في مجال ما، أو حتى في العديد من المجالات لتضمن لك مستقبلاً زاهراً. ومعظم الحضارات على ما يبدو، تميل لصالح من هو أكثر ذكاءً. فالذكاء النسبي هو أحد المقومات التي ترفعك في المجتمع. هل تساءلت يوماً لماذا ينال الطفل الذي يتمتع بالقدرة على الاحتفاظ بالمعلومات والتعبير عنها، تقديراً أكبر من الطفل الذي تميل مواهبه إلى الصناعات والحرف اليدوية؟ {والمعروف أن الثقافة الغربية ترتكز على الحضارة اليونانية التي تميل أكثر إلى الأكاديمية عنها لأن تكون عملية. وليس بمحض الصدفة أن الوحش المذكور في رؤيا 13، والذي يُوصف على أنه يقود العالم كله، هو بالأساس النمر، والذي يرمز لمملكة اليونان}.

هل يمكنك أن تتصور أحد الطلاب يُقبل في الجامعة لأنه يجيد العمل في الحدائق والعناية بها، أو لأنه موهوب في تصليح السيارات؟ توجد أماكن ومجالات خاصة لمثل هؤلاء الذين لهم هذه المهارات والحِرَف اليدوية، ولكن المُلاحظ أن التفضيل الأكبر يميل إلى وضع الأكاديمية في المرتبة الأولى.

اعتاد الأطفال أن يرجعوا من المدرسة إلى بيوتهم سنة بعد الأخرى ومعهم تقرير إنجازاتهم ومدى تحصيلهم المدرسي، وهم بذلك يطورون تصورهم لأنفسهم على أساس التقرير المدرسي. ولقد شَهِدتُ عدداً من الحالات كان الشخص يتمتع فيها بمواهب حِرَفِية وأعمال يدوية، ولكنه كان يكافح ببعض الصعوبة أكاديمياً. ونتيجة لذلك كثيراً ما تجد مثل هؤلاء الأشخاص يقللون ويحدّون من مقدرتهم ويقدمون تعليقات مثل: "هذا يتخطى قدرتي" أو "لا يمكنني أبداً إنجاز هذا الأمر". أو يتجرأون ويقولون عن أنفسهم: "أنا أغبى من أن أستطيع فعل هذا".

ولكن لا تخف أبداً لأنه توجد طرق أخرى للنجاح. فكل أنظمة المدارس تتضمن برنامجاً للرياضة البدنية، يتيح للأطفال تطوير دليل المقارنة الرياضية. ويقضي الأطفال آلاف الساعات لتنمية وتحسين المهارات الرياضية التي يأملون من خلالها أن تحقق لهم في يوم ما القوة والمجد والشهرة التي كانوا يتوقون إليها. وجميعنا يعلم أن الرياضة هي مجرد لعبة، أليس كذلك؟ إذاً أخبر ذلك لأبطال ونجوم كرة القدم الإنجليز الذين يستعرضون عبر شوارع أوروبا خلال المباراة الدولية التي تهدف للحصول على الكأس. وماذا عن الرجل الذي كان يشاهد فريقه المحبَّب لكرة الكريكت، وقد خسر فريقه هذا، الكأس العالمي. فأصيب الرجل بنوبة قلبية ومات حتى قبل أن تنتهي المباراة تماماً. ثم لماذا يُدفع للرياضيين المختلفين ملايين الدولارات في السنة لمجرد أنهم يركلون قطعة من الجلد هي الكرة، محاولين دفعها بين الخشبات الثلاث التي تشكل المرمى أو

الهدف؟ مثل هذه الألعاب الرياضية وغيرها، هي عبارة عن شكل من أشكال التجارة الفاحشة الربح، إذ أنها توفر أحد أبسط الطرق والوسائل التي من خلالها يحصل الشخص على القيمة من خلال الإنجاز وجذب كل الانتباه الذي يتمناه. كما أنها من أفضل النُظُم لإنعاش روح ومبدأ الدوراسيل أي مبدأ إثبات الذات والحصول على التقدير والقيمة من خلال ما يحققه الشخص وينجزه، وبالتالي التخلي عن فكرة أن قيمتنا يمكن أن تأتي من خلال العلاقات وليس الإنجاز.

من أكثر الأمور أهمية بالنسبة للألعاب الرياضية هي أنك رغم مقدرتك على الأداء الممتاز الذي يجعلك في المستوى الأعلى، إذا حدث ووضعك أداؤك في المرتبة الثانية، فلن يتذكر أحد اسمك. إن الشعور بالحسرة والألم المترتب على الخسارة، يمكن أن يكون ذات تأثير مدمر. وأتذكر أنني كنت ذات مرة أشاهد مباراة كرة القدم، ورأيت أحد اللاعبين يتهاوى فجأة على الأرض وهو يبكي وينتحب مثل الأطفال لأنه لم ينجح في إحراز الهدف من ركلة جزاء مما تسبب في أن يخسر فريقه الجائزة الكبرى. وأتذكر كيف ساعده المدرب على النهوض من على الأرض والخروج من الملعب. وأتساءل يا ترى كيف كان شعور ذلك اللاعب حول مدى قيمته في نظر نفسه والآخرين. وطبعاً هذه كانت مجرد مباراة. هذا صحيح، ولكنها مباراة أو رياضة تشكل صراعاً مميتاً للحصول على التقدير والقيمة والقبول.

ويمكننا إدراج العديد من الآلهة الأخرى التي نرجو أن تَرضَى عنا وتمنحنا النجاح والسعادة التي نتمناها. وهناك أيضاً مجال الجمال الجسدي حيث يمكن أن يكسب المرء الشهرة أو يخسرها بناء على تركيبة الوجه وشكل عظمة الخد، أو حجم الصدر. وهناك العديد من الفتيات الشابات اللآتي يبكين ليلاً ونهاراً لأنهن لم يحصلن على درجة الفوز في مسابقة الجمال. وكلنا رأينا مؤخراً تفاقم معضلة التنحيف، أو محاولة إنقاص الوزن بحيث تصوم المرأة عن الطعام لفترة طويلة لتُنقص وزنها ليكون ضمن المعدلات التي تُبشر بالنجاح والفوز في مسابقة الجمال أو غيرها من المسابقات.

وماذا عن مجال الغِنى واصطناع الثروة، والوظائف بدرجاتها المختلفة والمساكن بمناطقها وحجم إتساعها؟ لقد عملت في إحدى الشركات العالمية على مدى بضع سنين. ومن الملفت للنظر أن الشخص يمكنه أن يعرف من هو المدير الأعلى في الشركة بمجرد مشاهدة مكتبه ونوعية الأثاث التي بداخله. فمدير هذه الشركة التي عملت بها كان له مكتب منفصل يطل على الشارع العمومي. وهو يجلس خلف مكتبه الفخم على كرسي مصنوع من الجلد الخالص وله مسندين للذراعين. وفوق المكتب يوجد كمبيوتر من أحدث طراز. والموظف الذي يليه في الرتبة له أيضاً مكتبه الخاص المنفصل. ولكن المشهد الذي تطل عليه نافذة مكتبه ليس بذات الجمال. والكرسي الذي يجلس عليه ليس بذات الفخامة والجودة. والكمبيوتر الذي يستخدمه ليس بهذه السرعة والكفاءة.

أما الشخص الثالث في الرتبة بعد المدير ومساعده، فله مكتب ملحق بمبنى الشركة وليس منفصلاً بذاته. والكرسي الذي يجلس عليه ليس له مسندين للذراعين ليسترخي عليهما وهو يسند ذراعيه. كما أنه ليس عنده هاتف لاسلكي. والنافذة الوحيدة التي في مكتبه مرتفعة جداً بحيث لا يستطيع حتى النظر منها إلى الخارج لأنها فقط لإدخال الضوء والهواء. ولا يسع المرء إلا أن يضحك عندما يتأمل في معنى كل ذلك. ولكن هذه ظاهرة جدّية وخطيرة في العالم المترابط. فأثاث المكتب هو جزء مهم لعمل مقارنة دقيقة بينك وبين زملائك. وقائمة المقارنات والفرص المترتبة عليها، لا تنتهي في عالم الدوراسيل. ولكنها غالباً ما تندرج ضمن فئة معينة من الفئات القليلة الأساسية التالية:

1. مستوى التعليم
2. القدرة الرياضية
3. القدرة الموسيقية / الفنية
4. درجة الوظيفة / ومستوى الدخل
5. المظهر الجسدي الخارجي
6. الممتلكات والمقتنيات
7. الجنسية

تلك هي الآلهة التي يتعبد لها أهل العالم ويرجون أن تكون في صفهم. وهذه الآلهة هي بمثابة السادة الصارمين، التي غالباً ما تطلب الخضوع التام من رعاياها إذا كانوا يرجون الاستفادة منها. فهي تتطلب التضحية بالعائلة والأصدقاء. وإذا كنت أنت من المحظوظين فقد تصل إلى مرحلة قصيرة الأمد من الشهرة والمجد قبل أن تنزوي صوب العدم والنسيان. وكلنا نصبح عبيداً لهذه الآلهة من خلال المبدأ الذي ترتكز الدوراسيل عليه، أي إثبات قيمتي من خلال إنجازاتي. وتلك هي الآلهة ذاتها التي يسعى الله خالق السموات والأرض لأن يخلصنا ويحررنا منها.

13. دَرَجٌ (سُلَّمٌ) إلى السماء

كان الشتاء يوشك، والنهار أخذ يقصر طوله والحرارة تقل درجتها شيئاً فشيئاً. وقد حان الوقت لتجميع الأخشاب وإعدادها في أكوام إستعداداً لاستخدامها في المِدفأة للاستدفاء بحرارتها خلال فصل الشتاء القارص البرودة والذي أخذت تباشيره تطل على ذلك التل الصغير الهادىء حيث كانت تسكن إحدى العائلات. وكان رب تلك الأسرة منشغل في قطع الأخشاب من الغابة، عندما لاحظ بطرف عينه ولداً صغيراً يقف إلى جواره ويراقبه بدقة. وما أن تطلع إلى أعلى حتى بادره الصبي الصغير بالقول: "والدي يستطيع قطع الأخشاب بأسرع مما تفعل أنت". ودهش الرجل على جرأة هذا الفتى الصغير، واكتفى بالرد قائلاً: "يآه، هل هذا صحيح؟" ولم يسكت الصبي بل رد على الرجل مؤكداً: "بالتأكيد هذا صحيح وأن أبي بالفعل أسرع منك. فأبي يستطيع أن يفعل أي شيء لأنه الأفضل في العالم". فهزَّ الرجل رأسه مبتسماً وقال: "حسناً يا بنيَّ أنت محظوظ أن يكون لك أب بهذه الكفاءة".

تلك كانت البساطة التي تميزت بها طفولتي، أيام لم يرتكب فيها والديَّ أي خطأ في حقنا، وكنا نتخيلهما الأفضل في العالم كله. ولو أنني بقيت في هذه المرحلة البسيطة من حياتي مدة أطول، لكان ذلك أفضل من عدة نواحي. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. وبعد وقت قصير من بداية الدراسة في المدرسة، بدأت أتكيف مع الدائرة المتواصلة من المقارنات، ساعياً لإثبات وضعي في ذلك المجتمع الصغير من التلاميذ الذين كنت أشارك معهم اختباري التعليمي وتحصيلي المدرسي. ولم يكن مستوى المقارنة بتلك الشِدة خلال سني الدراسة الإبتدائية، ومعظم اختباري المدرسي كان ذات ذكريات إيجابية جميلة، حسبما أتذكر. كنا في المدرسة نشترك في العديد من الأشغال الفنية والحرف اليدوية والألعاب والأنشطة التي كانت في معظمها متعة كبيرة لنا. ولكني كنت أستشعر أن هذه كلها ذات مذاقٍ مر، إذ كنت أراها بمثابة إنذار وتوقع لما كانت ستتكشف عنه مملكة الدوراسيل أثناء تلك السنوات الباكرة من حياتي.

وما أن وصلت السابعة من عمري، حتى انتقلت عائلتي إلى منطقة أخرى، وسرعان ما وجدت نفسي بين مجموعة جديدة من الأطفال الذين انضممت إليهم. وتصادقت بسرعة مع العديد منهم، ولكن وجدت صعوبة مع بعضهم الآخر من الأشقياء. كانت بنيتي الجسدية قوية كطفل، وفي المدرسة قرر تلميذان نحيفان إغاظتي لأنهما رأيا أن تركيبة جسدي بدت أقوى منهما وأسمن. فأخذا يطلقان عليّ أسماء وتعابير هزلية مثل: "ها هو ألبرت السمين"، أو "طويل وأهبل"...الخ. من التعابير التي علقت بذهني وما زلت أتذكرها. كان ذلك بالنسبة لي اختباراً مرعباً، ولا بد أن العديد منا قد اختبروا شيئاً مماثلاً أثناء سنوات الطفولة. وقد استمرت هذه الإغاظة يوماً بعد

الآخر في المدرسة. كان عدو النفوس يستخدم هذين التلميذين لتحطيم شعوري بقيمتي الذاتية. وفي طريقي إلى المدرسة ذات يوم قررت أنني ما عدت أحتمل المزيد من هذه الإغاظة. وما أن أوصلتني والدتي إلى المدرسة بالسيارة، حتى قررت عدم النزول منها وقلت لوالدتي: "لا أريد الذهاب إلى المدرسة أبداً". ولكن والدتي لم ترضخ لطلبي بسهولة. وإذ اقتربت السيارة أكثر من بوابة المدرسة، رأيت التلميذين ذاتهما يراقباني بدقة شديدة مثلما يراقب النسر فريسته قبل أن ينقض عليها. وفتحت والدتي باب السيارة وحاولت أن تسحبني لأنزل منها. أما الدقائق القليلة التي تبعت ذلك فكانت مشحونة بالتوتر الشديد، إذ كنت أشتكي بشدة وأركل بقدمي وأبكي متشبثاً بمقعد السيارة، ربما مثلما يتصرف أي طفل رديء التربية. ولكن في هذه اللحظة، ربما، عندما وصل شعوري بقيمتي وبهويتي كشخص، إلى الحضيض، قررت الإقدام على تصرف حاسم لأنقذ نفسي من هذا الشعور المُذِل. والحقيقة أنني لا أكاد أتذكر ما حدث بعد ذلك، ولكنني أدركت تماماً أن الإغاظة توقفت تماماً منذ ذلك الحين. ولم يكن ذلك سوى تذوق حقيقي لما كان يكمن لي مستقبلاً.

إن القسوة التي يظهرها الأطفال ما هي إلا النتيجة الحتمية لإطلاق العنان لمبادىء مملكة الشيطان القائمة على تفعيل مبدأ المقارنات. إننا كثيراً ما نقف في حالة ذهول من الأنانية والوقاحة التي يُظهرها الأطفال. فهل تتلاشى منا هذه الصفات بصورة طبيعية عندما نكبر؟ كلا، فكما سبق وذكرنا، أن لا أحد يستطيع ترك مملكة الشيطان هذه بدون مساعدة وعون ابن داود – المسيح يسوع. فنحن كلما تقدمنا في العمر نصبح ببساطة أكثر دهاءً ومكراً.

عندما وصَلتُ إلى منتصف دراستي الثانوية شعرت أنه قد تمت برمَجَتي تماماً. فتعلمت أن أتعبد لإله التعليم وإله الرياضة وإله المظهر الخارجي. وأردت التعبد لإله المال والثروة، ولكن لم يكن لي عمل في ذلك الوقت لكسب المال. كل ما كان يحيط بي كان يوحي لعقلي بضرورة التنافس والمجاهدة لأكون الأول، والمزيد من التنافس والمجاهدة لأظهِر إنجازاتي ومهاراتي. فلقد تعلمت أنه ليس غير الرابحين هم المقبولين، أما الخاسرون فلا قيمة لهم ولا يساوون شيئاً. وفي كثير من الأحيان كان الحافز الذي يجعلني أتفوق في الدراسة، يميل بالأكثر صوب إمكانية حصولي على المرتبة الأولى، عنه من أن أستمتع وأستفيد بمضمون ما أتعلمه في المدرسة. وكنت أشاهد في التلفاز الأفلام التي من شانها أن تعزز هذا النهج والاعتقاد. وكان الممثلون الذكور المشهورون، يُصَوَّرون على أن عليهم القيام بعمل بارع وإنجاز عظيم من شأنه أن يجذب إحدى الفتيات. وهذا جعلني أعتقد أن العلاقة لم تكن سوى إنجاز نقوم به، وأن الفتاة كانت أشبه بالجائزة عنها بالصديقة. وطبعاً أنت لن تُعَبِّر عن حقيقة هذا الأمر بهذه الصراحة، لأن هذا كله كان يدور على مستوى العقل الباطن أو بشكلٍ غير واعٍ تماماً.

كان ذلك وقت للأحلام. وكثيراً ما كنت أتمدد على فراشي وأحلم أنني أحرزت هدف الفوز لبلدي أستراليا في مباراة كرة الكريكيت أو في سباق الركض، أو أنني خاطرت بحياتي لأنقذ إحدى الفتيات من محنتها. هذه الأحلام شكلت نسيج نظام القِيَّم الخاص بي.

وكلما استرسلت في مثل هذه الأحلام، كلما زاد تصميمي لتحقيق هذه الأهداف. أما الأمر الصعب فهو أنني لم أستطع تحقيق تلك الأهداف من فراغ. فإذا أحرزت الفوز فسيتحتم عليّ التغلب على الآخرين. صحيح أنني أردت الخير لأصدقائي، ولكني أردت تحقيق أحلامي أولاً. كان بالإمكان أن أكون هادئاً ورزيناً عندما لا يكون هناك أي تهديد على أحلامي. ولكن عندما شعرت بوجود أي تحدٍ لأحلامي وتطلعاتي، كانت الحرب تبدأ على الفور.

ولقد عملت بجهد كبير لتحقيق أهدافي فتفوقت في الألعاب الرياضية وكذلك في استحصال العلم. أي أنني تفوقت في مجالين من ثلاثة مجالات، وهذا لا بأس به. ثم بدأت الدخول في مرحلة

أخرى. فما أن وصلت إلى القمة حتى تحتم عليّ محاولة البقاء في ذلك الوضع الممتاز. فكنت دائماً أتطلع حولي خوفاً لئلا يسبقني أحد أو يتفوق عليّ. كان عليّ المحافظة دوماً على ما أحرزته. فقد كان مركزي المتفوق عزيزاً وثميناً في نظري. ثم هناك توقع الصيت والشهرة. وحالما تشوقت إلى الصيت، داخلني الشعور بالخوف من الفشل. فماذا إذا لم أتفوق؟ سيكون هذا أمراً مفزعاً. وبالتالي زاد هذا من تصميمي أكثر فأكثر.

استمر هذا الصراع وتلك المعركة لفترة من الزمن، حتى بدأت أدرك أنه من المستحيل تماماً تحقيق كل أهدافي وتطلعاتي. وهذا أدى بي إلى نوبات من الغضب. وأعتقد أن هذا كان نتيجة شعوري بالخيانة. لقد خدمت أسيادي جيداً، ولكن ها هم يستهزؤون بي ويسخرون مني. فقد تدربت في نظام لا يمكنه أبداً أن يمنحني شعوراً دائماً بالقيمة، وبالتالي انتابني الغضب.

كثيرون يكافحون من أجل أن يتبينوا لأنفسهم التقلبات التدميرية المتطايرة التي تظهر كثيراً على الشباب وتدفع العديد منهم إلى الإنتحار، أو إلى اللجوء لتعاطي المخدرات والمُسكِرات بنهمٍ شديد. وأعتقد أن هذا يرجع في كثير من الأحيان إلى حقيقة إدراكهم أنهم لن يستطيعوا أبداً تحقيق أحلامهم من خلال الأساليب التي تلقنوها. وأنهم لن يصبحوا عظماء أبداً في نظر الآخرين، وبالتالي تتلاشى ثقتهم بأنفسهم.

أتذكر ذات يوم كنت ألعب فيه ضمن فريق لكرة السلة، وكان التنافس شديداً جداً إذ كان الشوط يوشك على الانتهاء. وكانت مهمتي ضمن الفريق أن أراقب أحد لاعبي الفريق المضاد حتى لا يستفرد بالكرة ويضعها في السلة. ولكن هذا اللاعب الخصم قفز فجأة من أمامي ورفع الكرة ليلقيها في السلة التي أصبحت قريبة جداً منه. وبينما يده في الهواء والكرة تكاد تنطلق صوب السلة، رفعت يدي بسرعة وضربت الكرة من يده. ولشدة دهشتي سمعت صافرة الحكم على الفور. كما سمعت اللاعب الذي أفلتت الكرة من يده يقول لي: "خطأ". وكنت أنا أعلم، حسب ظني، أنني لم ألمسه هو بل الكرة فقط. وفجأة شعرت بذلك الغضب الشديد يملأ صدري. الغضب من ذلك النظام البائس الذي وعدني بالعالم كله، ولكنه في النهاية لم يعطني شيئاً على الإطلاق. واندفعت صوب الحكم ووقفت على بعد سنتيمترات قليلة منه ووجهي يكاد يلامس وجهه، وصرخت فيه بأعلى صوتي معترضاً على حُكمَهُ بأنني كنت المخطىء. شعرت بثورة جامحة في داخلي لم أستطع كبح جماحها المتدفق. وبسرعة طردوني من الملعب ومنعوني من اللعب والمنافسة. وإذ كنت أغادر الملعب شعرت فجأة بروح الله يعمل في داخلي ويهدىء من روعي. فتساءلت، ما الذي حدث لي يا تُرى؟ ولماذا تصرفت هكذا؟ ولماذا اندفعت هكذا؟ ولماذا تلاشت سيطرتي على نفسي؟ كيف لم أضبط أعصابي؟ وكانت تلك أول مرة أتوقف لأتباحث فيها مع نفسي وأتشكك في الاتجاه الذي أخَذَته حياتي. ولا شك أن الله حثني في تلك اللحظة على البحث عن شيء أفضل، لأنني بالفعل بدأت أشعر بأنه لا بد وأن يكون هناك طريق أفضل من ذاك الذي كنت أنتهجه.

وقد راقب أيضاً الشيطان، عدو النفوس، ما بدأ يطرأ عليّ من تغيير، ولاحظ رغبتي في تبديل مسار حياتي، فحاول أن يدفعني صوب محاولة بذل المزيد من الجهود لأثبت ذاتي ومقدرتي. وهذا أشبه بالمدخن الذي يستشعر أن وقت الإقلاع عن التدخين قد حان، فيبدأ بالتدخين ضعف الكمية التي كان يدخنها قبلاً. وهكذا بدأت أنا بالانسحاب إذ تلاشت أحلامي وأصبحت متقلب المزاج. وفي ذات يوم دخلت والدتي إلى غرفتي وأخذت تشتكي من حالة الغرفة غير المرتبة. ودعني أقول هنا أن غرفتي كانت أقل من المستوى الأمثل، مثلها مثل باقي الأولاد في سن المراهقة. وشعرت بسخط شديد لأنها تتدخل في شؤوني الخاصة وتريد السيطرة على حريتي. فأطلقت العنان للساني لينطق بعدة كلمات وعبارات جارحة وسريعة. ثم طلبت منها أن تتركني وشأني.

من المثير للاهتمام أن ترى الطرق المختلفة التي يستطيع الله من خلالها أن يصل إلى شخص ما. والعديد من أصدقائي كانوا يشيرون إلى أمهاتهم بأوصاف وتعبيرات مهينة للغاية. ولكن والدي تمكن بطريقة ما أن يُعلّمني كيف أحترم والِديَّ. وأقسمت ألا أصف أمي أبداً بتلك الأوصاف التي يستخدمها بعض أصدقائي عن أمهاتهم. وعندما غضبت في ذلك اليوم الذي دخلت فيه أمي إلى غرفتي، وتفوهت بتلك الكلمات الجارحة والسريعة عنها، شعرت أن آخر ما تبقى لي من كرامة قد إنهار تماماً. واندهشت كثيراً من نفسي أن تخرج من بين شفتي مثل هذه الكلمات. وهكذا زاد يأسي وتضاعفت كآبتي. لقد كدت أصل إلى الحد الذي ما أعود بعده بالاهتمام بأي شيء على الإطلاق. وتلك نقطة خطيرة ومرحلة حرجة من الفشل الذريع واليأس المريع. وأدركت إدراكاً واقعياً أنني قد وصلت إلى مفترق طرق. فالطريق الواسع السهل كان يرحب بي بذراعيه الممدودتين وجواذبه الحسية من خمر ونساء وحفلات موسيقية صاخبة. وفي الجانب الآخر كان الطريق الضيق الذي يصفه الكتاب المقدس. فهل أتبع الديانة التي علمني إياها والدي، أم أنطلق مثل السهم صوب الطريق الواسع؟ لم أرَ أية فائدة بعد ذلك بالتظاهر بالمسيحية، فقد اتضح لي الآن بدون أدنى شك أنني لم أكن مسيحياً، ماضياً وحاضراً رغم أنني نشأت في محيط مسيحي. كان عليّ الآن أن أختار إما المسيح أو الشيطان. وكم أشعر بالشكر أنني قررت محاولة إيجاد يسوع المسيح الحقيقي الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس.

وقررت أن أقرأ أحد الكتب الذي كان عندي في البيت لسنوات طويلة، واسمه "طريق الحياة". وكان عنوان الكتاب مناسباً تماماً لاختباري واحتياجي. فبدأت أقرأه بشوق كبير، ولكن ببعض شعور اليأس لأجد يسوع. كان عليّ أن أجد الطريق المستقيم إلى السماء، لأنني ما عدت أستطيع احتمال مملكة الشيطان فيما بعد.

وفي الجزء الأول من ذلك الكتاب، أوضحَت الكاتبة أن المسيح جاء ليبدد ويفضح الأكاذيب التي روجها الشيطان وجعل البشر يحتضنوها عن صفات الله. وكيف سعى المسيح ليظهر لنا حقيقة أن الله يحبنا بالفعل. وقرأت الكتاب كله بتعطش كبير يشبه تعطش الأرض الجافة لزخات المطر المتساقطة. فالكاتبة قدمت ليّ الدعوة كقارىء أن أتأمل في المسيح وهو في بستان جثسيماني وأن أتتبع في مخيلتي خطواته حتى الصليب.

وبينما أنا مستغرق في تأملي لهذه المشاهد، شعرت فجأة وكأنني واقف هناك بالفعل وأشاهد المسيح. فذاك المصلوب بدا لي أنه حقيقة أكيدة، وداخلني ذلك الاقتناع العميق بأنه عُلِق على الصليب لأنه أحبني وفهم حاجتي المُلِحَّة للهرب من مملكة الشيطان. وتعزز فيّ الفكر عندئذٍ بأنني أستطيع أن أثق به كأفضل صديق لي، وأنه سيقودني ويرشدني إلى ملكوته السماوي. وإذ واصلت النظر إليه، شعرت بامتنان عميق يملأ قلبي ووجداني لأنه ارتضى أن يخلصني. كما شعرت أيضاً أن عبء الذنب واليأس والخوف الذي أثقل كاهلي لسنوات طويلة، قد تدحرج عن صدري. وملأ قلبي سلام لم أشعر به هكذا من قبل، فأخذت أبكي فرحاً وابتهاجاً. فقد تخلل ابن داود حياتي أخيراً وبدد ظلمات نفسي ليملأ قلبي وحياتي بنوره الوضَّاح.

14. الآلهة ذاتها – أسمها مختلفة

كانت القاعة تموج بالحركة والنشاط والضحك والموسيقى والإثارة الشبابية. وفي مقدمة القاعة تم تثبيت مكبرين للصوت ذات حجم كبير لتضخيم صوت الموسيقى من أحدث فرق الروك. لقد قمت أنا بتنظيم ذلك الإحتفال مع مجموعة من أصدقائي – على الأقل هذا ما حاولت فعله. وتوجهت لأجلس في إحدى زوايا القاعة حيث كان أحد أصدقائي في سن المراهقة، يشاهد، وهو مفعم بالحيوية، مشهداً من أحدث الأفلام التي عُرِضت في السوق. وإذ كنت مسترخياً على مقعدي، حاولت استيعاب المشهد والجو المحيط بالقاعة. ولكن شيئاً ما لم يكن على ما يرام إذ أنني لم أشعر بالراحة، فنهضت وذهبت إلى الردهة الخلفية لأنضم إلى بعض الشباب الرومانسيين الذين كانوا يناقشون أحدث مآثرهم ومغامراتهم في الاستحواذ على فتاة أحلامهم. وهنا أيضاً شعرت أنني لا أستطيع الاستمتاع بهكذا حوار ونقاش. وبدأت أتساءل، يا ترى ما الذي حدث لي؟ فحتى صوت الموسيقى المرتفع كان يزعجني ويضايقني. وعندما نظرت عبر القاعة رأيت مشهداً في شريط الفيديو الذي كان يُعرض، أزعجني لقبحه. وتعزز فيّ الفكر بأنني أكره هذه الأشياء.

تسارع ذهني مع السيناريوهات المحتملة. فحتى الآن كان ذلك هو تعريفي للمتعة. ولكني الآن ما عدت أريد هذا اللهو والمجون. لقد سيطر أمر ما على قلبي وجعل من المستحيل عليّ الاستمتاع بتلك الأشياء. وداخلني اقتناع عميق ومزعج من حيث لا أدري، بأن حياة المتعة التي عشتها سابقاً قد جاءت إلى نهايتها، وأنني لن أستطيع بعد الآن الاستمتاع بحياتي على الإطلاق. وبسرعة اندفعت بعيداً عن مدخل البيت حتى وصلت إلى الحديقة الأمامية. وهناك رفعت قبضتي عالياً في الهواء ولوحت بها بعنف وأنا أصرخ وأصيح: "لقد دمرت حياتي".

كان ذلك بعد عدة أسابيع منذ اختباري مع المسيح الذي يشبه اختبار بولس الرسول وهو في الطريق إلى دمشق. لقد انقلبت حياتي رأساً على عقب. وشعرت بسلام لم أختبره أبداً من قبل. وبدأت أرى بُعداً جديداً في الكتاب المقدس وأتلذذ بقراءته مع شعور بالتحرر لم يخالجني قبلاً. لقد دخل المسيح حياتي وكان التغيير فورياً. وفجأة بدأت أدرك أن بعض الكلمات التي كنت أتفوه بها كانت مبتذلة وغير لائقة، وأن جوانب معينة من نمط حياتي كانت تتعارض مع التوجه الذي بدأت السير فيه. لقد كنت في سَفَرٍ صوب المملكة الجديدة. وكان ذلك أشبه بالذهاب إلى دولة أجنبية تماماً ومحاولتي تعلم اللغة والحضارة والعادات الجديدة مبتدءً من الصفر.. وكنت أريد بل وأتوق للتعلم لأنني أحببت رب هذه المملكة. ولكن نظراً لأنني تتلمذت وترعرعت في مملكة أخرى مختلفة، كان يلزمني بعض الوقت لأتكيف على المملكة الجديدة هذه.

لم يكن حتى جائت ليلة تلك الحفلة، أنني أدركت مدى عمق التحول الذي بدأ يحدث في حياتي. فمنذ أن أسَرَ المسيح قلبي بمحبته، لم أستطع مقاومة دعوته لي. وفي ليلة الإحتفال عندما كنت أفعل ما ظننته أنه جيد، استطعت الشعور بأن الله كان يدعوني للابتعاد عن هذه النوعية من الحياة. ونظراً لأنني لم أكن أعرف ما هو أفضل من ذلك، شعرت بالخوف من أن التبديل الذي يحدث لحياتي لن يكون بهذه الجودة. ومن السهل جداً أن يخاف المرء من المجهول حتى وإن علم أن ما سيأتي سيكون هو الصواب. وكم أشعر بالإمتنان أنني اخترت أن أضع ثقتي في المسيح وعلمت أنه سيهتم بي. وكان من الأفضل أن أضع ثقتي فيه عوض الثقة بمشاعري.

عندما قبلت المسيح مخلصاً لي، شعرت بالنشوة على مدى عدة أسابيع، كما أحسست بأنني كنت قريباً منه بشكل خاص. وقد استمر معي هذا الإحساس حتى اليوم. لقد فتح المسيح أمامي أبواب السماء، وبدأ يساعدني في اقتلاع بذور مبدأ الدوراسيل من قلبي، والتغلب على تلك الفلسفة الحياتية التي جعلت إنجازاتي وأدائي هي محور نظام القيَّم الخاص بي. وهذه رحلة يتحتم على كل بني آدم أن يُقدِمُوا عليها. والوسيلة الوحيدة التي بها نستطيع القيام بهذه الرحلة، هي بتثبيت نظرنا على النور المنبثق من الصليب، وأن نقتفي بتواضع وخشوع خطوات مخلصنا صوب مبادىء الملكوت الجديد.

بدأت أحضر اجتماعات الصلاة مع أصدقائي. وفي تلك الليلة الأولى عندما ركعنا سوياً أمام الله، شعرت بحضور روح الله الوديع حولنا، ولكن كان هناك روح آخر مصدره حياتي القديمة، يتحرش بي. وإذ رفعنا صلواتنا الواحد بعد الآخر عبر الحلقة الدائرية التي جثونا فيها معاً، طرأ خاطر في عقلي بأنني لن أستطيع الصلاة ببلاغة مثلما يفعل أصدقائي الراكعين إلى جواري. وبدا أن تفكيري انحصر في هذا الأمر. وإذ اقترب دور الصلاة مني، أخذ قلبي يخفق بسرعة، لأن الدور سرعان ما سيأتي عليّ لأصلي في مسمع كل أصدقائي. ولكني فجأة عَدَّلتُ من تفكيري وقلت لنفسي: "هذا اجتماع صلاة عن يسوع وليس عن نفسي".

هنا تتجلى لعنة الدوراسيل (مبدأ التركيزعلى الذات). فرغم أنني قد سلَّمت قلبي ليسوع وسعيت لأن أتبعه، فإن مبادىء حياتي القديمة كانت ما تزال متحفزة لتسحبني إلى الوراء حيث كانت الذات هي مركز ومحور كل شيء، ولتجعلني الآن أركز على أدائي في الصلاة ومدى استحسان الآخرين لبلاغتي فيها، على نقيض علاقتي وشركتي مع الله في الصلاة.

عندما بدأت قبلاً في دراسة الكتاب المقدس، كنت في كثير من الأحيان أشعر بعدم كفاءتي، لأنني، رغم نشأتي في بيئة مسيحية، ولكن من حيث الكتاب المقدس أدركت أنني لم أتخرج بعد من صف الحضانة. كنت أحب الاستماع إلى الواعظ أو المعلم، ولكن شيئاً ما كان يشغل تفكيري ويجعلني أتعجب من الكيفية التي يستطيع بها المعلم ايجاد الآيات بهذه السهولة. فأنا كنت أعجز تماماً عن ذلك. كنت عندما يعلن المعلم عن الآية التي سندرسها، أسرِع محاولاً ايجادها في كتابي المقدس حتى لا أكون آخر الجميع في العثور عليها فيضطر الآخرون لانتظاري ريثما أعثر عليها، مما قد يربكني أكثر ويُشعرني بالخجل. إن سنوات التدريب هذه التي حصلت عليها والتي اختلطت بمحاولاتي مقارنة نفسي بزملائي، بدأت تطفو على السطح أثناء رحلتي المسيحية. كان من السهل إلى حد ما على روح المسيح أن يبكتني على لغتي المبتذلة وكلماتي الجارحة، وعلى نمط حياتي الخاص، ولكن كان الأمر يستلزم وقتاً أطول لأدرك المدى العميق الذي وصلَت إليه مخالب مبادىء الدوراسيل في قلبي.

وإذ واصلت سياحتي هذه، تطور في داخلي حبٌ عميقٌ للكتاب المقدس. وكانت تلك من أفضل الوسائل لأتعلم المزيد عن بطل حياتي الذي قدم نفسه من أجلي. وقد أحببت كثيراً أن أدرس عن يسوع. وكان ذلك سبب بركة كبيرة لي. ولكن حياتي القديمة كانت متربصة دائماً تتأهب لكي

تنتعش مجدداً في داخلي. وبدأت أكتشف أن معلومات الناس من حولي كانت أقل بكثير مما أعرفه أنا عن الكتاب المقدس وما يحتويه. وبزيادة معرفتي بما في الكتاب، زادت ثقتي في الكلام. وسرعان ما كنت أقود مجموعات صغيرة ثم مجموعات أكبر، في دراسة الكتاب المقدس. وكان ذلك سبب بركة لي مرة أخرى وللذين حولي. ولكني كنت أتحرك بشكلٍ بطيء ومطرد إلى الوراء، عائداً إلى منصة تقدير القيمة من خلال الأداء والإنجاز، عوض تقديرها من خلال العلاقات. وكان ذلك يحدث ببطء غير ملحوظ، ولكنه كان يحدث. وبإدراكٍ متأخر تيقنت أنه بالنسبة للكثير منا، لدينا نفس الآلهة ذاتها ولكن بأسماء مختلفة.

لو أنك تأملت في الجدول التالي لرأيت كيف أنه من السهل أن يؤمن المرء بالكتاب المقدس ولكنه في الوقت ذاته يحيا مثل العالم. ولا أقصد هنا العيش وفق نمطٍ حياتيّ متسيب وجانح، بل أقصد أن يقَيِّم الإنسان نفسه وفق إنجازاته:

في العالم	في الكنيسة
التعليم	المعرفة بمحتوى الكتاب المقدس
القدرة على الرياضة	القدرة على الخطابة العلنية العامة
القدرة الفنية	خدمة الموسيقى والعزف والترنيم
الحالة الوظيفية	المركز أو الوظيفة الكنسية
الممتلكات	المواهب الروحية
المظهر الجسدي	مواكبة الموضة في الكنيسة
الجنسية	اللاهوت المُحافظ / الليبرالي

وبالنسبة للعديد منا فإن مسيرتنا مع المسيح تُختطف بواسطة مبادىء الدوراسيل الغادرة. وإذ أتطلع اليوم إلى أحوال الكنيسة، أرى أن الآلهة ذاتها التي حاولنا وسعينا للهروب منها في العالم، وجدت طريقها إلينا في الكنيسة بعد أن اتزرت بملابس النور، فاحتضناها وكأننا نحتضن صديقاً صالحاً مخلصاً. والنتيجة الحتمية لذاك هي الغضب والمرارة والتشاجر في الكنيسة. من السهل جداً أن نتظاهر بالتقوى في الكنيسة. ولكن ماذا عن الشخص الذي يجلس في الجانب المقابل من الكنيسة، والذي لا يتحدث إليك لأنك قلت شيئاً ما خلف ظهره، وبلغه ما أشعته أنت عنه؟ وماذا عن عازفة البيانو التي انتقلت إلى كنيسة أخرى لأن شخصاً ما انتقدها وقال لها أن عزفها على البيانو هو دون المستوى؟ وماذا أيضاً عن "جواسيس الشرطة العقائدية" (المتمسكين جداً بالحرفية اللاهوتية) الذين يجوبون أرجاء الكنيسة ساعين لمعرفة من هم الذين لا يتفقون تماماً معهم في مبادئهم العقائدية، لكي يطردونهم أو يفصلونهم عن الكنيسة؟ وماذا أيضاً عن أولئك الذين يدَّعون الحرية ولكنهم مع ذلك يسعون لخطف لجنة الكنيسة أو السيطرة عليها وعلى قراراتها بحيث يفرضون من خلالها أسلوبهم الخاص في العبادة على الكنيسة كلها، برغم اعتراض البعض على ذلك الاسلوب وعدم تحبيذه؟ وتطول القائمة ولا تنتهي. ويدرك عدو النفوس اللدود أنه طالما

استطاع أن يبقينا مركزين على هذه الأمور والعزف على هذه النغمة المستمرة، فسيضمن أننا نظل قابعين في الأساس تحت سطوة مملكته الاستبدادية.

إن الدليل الأقوى على أننا ما زلنا مكبلين بمبادىء مملكة الشيطان، يكمن في النسبة المرتفعة من التفكك والتفرقة والافتقار إلى المحبة المسيحية في الكنيسة. فلو أننا راعينا علاقاتنا معاً بالطريقة التي يراعي بها الله علاقاته بنا، لكان هناك تدفق أكثر من المحبة في الكنيسة، ولزاد اهتمامنا نحن أكثر بالطريقة التي بها نتعامل مع بعضنا البعض.

ومن المثير جداً للاهتمام أن هذا التحول الماكر للآلهة من العالم إلى الكنيسة في اختبارنا الخاص، قد حدث أيضاً في اختبار الكنيسة جمعاء. ففي القرن الرابع الميلادي عندما "اعتنق" الإمبراطور قسطنطين المسيحية، حدثت مجموعة كاملة من التغيرات في الكنيسة المسيحية. وإحدى النقاط المثيرة بنوع خاص هي أن العديد من تماثيل الآلهة الوثنية التي كانت في" البانتيوم" (الهياكل الوثنية)، تم نقلها إلى الكنيسة المسيحية مع تغيير أسماءها إلى أسماء شخصيات من الكتاب المقدس مثل "موسى"، "داود"، "بطرس". الآلهة ذاتها ولكن بأسماء مختلفة. من غير المُهِم ما تطلقه عليها من أسماء أو ما تُلبسها من زخارف خارجية، فهي ما تزال وثنية، وماذا عسانا نقول اليوم؟ فمهاجمة الكنيسة على ارتدادها عن الحق الرسولي، لن يُجدي كثيراً طالما نرى المبادىء ذاتها تتفاعل في حياتنا الخاصة. فلنتأكد إذاً من التعامل أولاً مع الخشبة التي في عيوننا قبل أن نسعى لإزالة القذي من عين أخينا.

من الجدير بالاهتمام دراسة الرحلة التي قام بها أكثر أتباع المسيح حماسة وغيرة، ألا وهم تلاميذه. فكثيراً ما أطل برأسه بينهم موضوع السلطة والمركز. ولنتأمل الآن في بعض فقرات الكتاب المقدس:

> "في تلك الساعة تقدّم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم في ملكوت السماوات؟" (متى 18: 1).

يوجد سبب واحد وليس سواه جعل التلاميذ يتقدمون بذلك الطلب، وهو المصلحة الذاتية. فقد آمن التلاميذ أن المسيح هو المسيا القادم، وكانوا متحمسين ومنفعلين بالنسبة لإيمانهم به. بل بعضهم كان على استعداد حتى للموت من أجله. ولكن مثلما كان الحال معي عندما كنت أستعد لرفع صلاتي، وتحَوَلَ تفكيري بعيداً من التركيز على علاقتي بالله، إلى التركيز على إنجازي وأدائي في الصلاة، فكذلك تحوَّل التلاميذ من التركيز على علاقتهم بالمسيح إلى التركيز على المركز الذي يريدون شَغلَهُ في ملكوته الجديد:

> "وتقدم إليه يعقوب ويوحنا أبناء زبدي قائلين، يا معلم نريد أن تفعل كل ما طلبنا. فقال لهما، ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له، أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك" (مرقس 10: 35-37).

إن إله المركز والمَنزَلَة والرتب قد تغلغل بشكل كبير في المملكة الجديدة التي كان يعقوب ويوحنا يتعلمان مبادئها، بحيث جعلهما يطلبان من المسيح الجلوس عن يمينه ويساره في ملكوته. والحمد لله والشكر له أن المسيح لم يتعب أبداً من فشلهما المستمر في التخلي عن مبادىء المملكة القديمة. فقد فهم وأدرك أن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت لكي نرى مدى العمق الحقيقي الذي امتدت إليه جذور مبادىء مملكة الشيطان في داخلنا. والمعضلة التي نواجهها هي أننا عندما نسمح للمبادىء القديمة أن تسيطر علينا، يحدث الآتي والذي تلخِّصَهُ هذه الآية:

"ولما سمع العَشرَة ابتدأوا يغتاظون من أجل يعقوب ويوحنا" (مرقس 10: 41).

عندما نتيح لمبادىء المملكة القديمة أن تنتعش فينا وتسيطر علينا، يكون النزاع هو دائماً النتيجة الحتمية. ما فعله كل من يعقوب ويوحنا، جعل التلاميذ الآخرين يغتاظون. لماذا؟ لأن يعقوب ويوحنا بطلبهما هذا، كانا يرسلان إشارة مفادها، "نحن أفضل منكم". وربما أنهما لم يقصدا ذلك، ولكن تلك هي دائماً النتيجة. وقد انتهز المسيح هذه الفرصة ليحاول أن يوسِّع مفهومهم عن مدى اختلاف ملكوت الله عن المملكة التي نشأوا وترعرعوا هم فيها. كان عليهم أن يغيروا طريقة تفكيرهم.

"فدعاهم يسوع وقال لهم: أنتم تعلمون أن الذين يُحسَبون رؤساء الأمم يسودونهم، وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هذا فيكم، بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً يكون لكم خادماً. ومن أراد أن يصير أولاً، يكون للجميع عبداً. لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدِم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مرقس 10: 42-45).

ليت هذه الكلمات تدوِّي على الدوام في أسماعنا. فإذا أردت أن تكون عظيماً في ملكوت الله، تعلم أولاً أن تجد سرورك في خدمة الآخرين عوض أن تنافسهم وتسيطر عليهم. يقول لنا المسيح أن الأمميين (الوثنيين) يسودون على الآخرين ويستمتعون بممارسة سلطتهم عليهم وإشعارهم أنهم رؤساء وأسياد عليهم. والغريب في الأمر أن هذه الروح ذاتها كثيراً ما تسيطر على الكنيسة، إذ يسعى بعض الأعضاء إلى فرض إرادتهم وسلطتهم على الكنيسة جمعاء. ورغم أننا نعيش بعد الصليب بألفي سنة، إلا أن العديد منا ما زالوا لا يفهمون الأساسيات.

لماذا يجد عدو النفوس سهولة كبيرة لدفعنا وسحبنا للوراء صوب طريقة تفكيرنا القديمة؟ لقد عرفنا الجواب على هذا السؤال مما ذكرناه سابقاً، ألا وهو شعورنا العميق بعدم الأمان. وذلك ما يَسَهِّل على الشيطان مهمته في إيقاعنا في تجربة محاولة إثبات قدرتنا وكفاءتنا. وما لم نتذكر الطريقة الصحيحة التي بها نُقَيِّم أنفسنا، فسيكون من المستحيل علينا أن نقاوم محاولتنا لتحويل الحجارة إلى خبز لنثبت أننا ذات شأن وأهمية.

إنني أجد شيئاً ما مزعجاً ومفزعاً جداً في مبدأ الدوراسيل هذا، ويلتصق بنا بعناد وإصرار. كان المسيح هو أفضل معلم عرفه التاريخ على الإطلاق. وقد قضى ما يزيد على الثلاث سنوات بصحبة التلاميذ ليعلمهم كل ما استطاع أن يُفهِمَهم إياه عن ملكوت السموات. ولكن وبعد كل ذلك نجد أنه حتى في ليلة الصلب ذاتها، كان التلاميذ ما زالوا مأسورين لمبادىء حياتهم القديمة التي ظلت تسيطر عليهم حتى ذلك الوقت.

"وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم. ولكن هوذا يد الذي يسلمني هي معي على المائدة. وابن الإنسان ماضٍ كما هو محتوم، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي يسلمه. فابتدأوا يتساءلون فيما بينهم من تُرى منهم هو المزمع أن يفعل هذا. وكانت أيضاً بينهم مشاجرة من منهم يُظَن أنه يكون أكبر" (لوقا 22: 20-24).

في ذات الليلة التي تجلت فيها أعظم محبة رآها الكون على الإطلاق، فإن أولئك الأقرب من المسيح والذين عرفوا عن ملكوته أكثر من أي شخص آخر، كانوا يتجادلون فيما بينهم حول من منهم هو الأعظم. ولا بد أن الحزن الذي عاناه المسيح في تلك اللحظة، كان عميقاً وجارفاً. فهل

من الممكن لنا نحن الذين نَدَّعي أننا أتباع المسيح، أن نكرر أخطاء التلاميذ، أي نكون أتباع غيورين ومتحمسين للمسيح، ومع ذلك نتجادل ونتنازع بين أنفسنا حول من منا هو الأعظم؟

يوجد أمر واحد فقط يمكن أن يكون أسوأ من أن نقع تحت سيطرة مبادىء الدوراسيل في العالم، وهو أن نكون تحت سيطرة نفس تلك المبادىء داخل الكنيسة. فليت الله القدير يساعدنا لمقاومة تلك المبادىء التي تسعى لإثبات الذات، والتحرر منها لكي نختبر ملء فرح ملكوته المجيد.

15. كيف تقرأ؟

اليوم سيكون يوماً خاصاً بالنسبة لك. فأنت قد بدأت تترقب وتتطلع بشوق وتلهف صوب الآفاق المحتملة التي تنتظرك. فقد أبدى مدير إحدى الشركات الصناعية الكبيرة، اهتمامه بتصميم خاص قمت أنت بتطويره وكنت تنتظر من يُصَنِّعهُ ويُصَدِّره لك في جميع أنحاء العالم. وبسرعة قررت أن تقابل هذا المدير في موعد على الغذاء داخل مطعم محلي صغير. ونظراً لأنك لم تلتقِ أبداً من قبل بهذا المدير، فقد بدا عليك التوتر وأنت تنتظر حضوره وتتلفت هنا وهناك محاولاً التعرف عليه لترحب به، سيما وأنه سيُحوِّل حلمك إلى واقع حقيقي. وأخيراً يصل المدير وتتقدم أنت لتصافحه بحرارة، ومن ثم تتحركان سوياً إلى داخل المطعم وتجلسان مقابل بعضكما. وللبدء في التعارف، يطرح ضيفك بعض الأسئلة عليك بخصوص عائلتك وموقع سكنك وكيف هو حال أطفالك في المدرسة. كل شيء كان يسير حسناً وعلى خير ما يرام، فيما عدا حقيقة وجود رجل خلفك مباشرة، كان يلتهم طعامه ويشرب حساءه بطريقة فنية متميزة تلفت النظر، إذ كان يُحدث صوتاً مرتفعاً بفمه وهو يمضغ الطعام أو يشرب الحساء. وفي البداية تحاول أنت تجاهل الأمر على قدر طاقتك وعدم إعطاء أهمية كبيرة له. ولكن بعد فترة وجيزة يسوء الوضع أكثر ويصبح مثيراً للأعصاب والنرفزة والضيقة. وتفكر في نفسك قائلاً: "يحتاج هذا الرجل أن يتعلم بعض الآداب والأخلاق". ولكنك تواصل تجاهل هذا الرجل المزعج حتى لا يشتت انتباهك لما يقوله مدير الشركة الصناعية. وتسير مناقشتك مع المدير، الذي يُحتمل أن يكون شريكاً لك في المستقبل، سيراً حسناً. وبينما أنت في منتصف المناقشة المهمة، وتتناول مع ضيفك موضوع بعض الفوائد الإضافية لتصميمك، فجأة يتجشأ الرجل خلفك بصوت مدوٍ بشع تكاد تهتز له الملاعق والسكاكين التي على طاولة الطعام التي تجلس أمامها مع المدير. وعلى الفور تتحول عيون كل الموجودين المذهولين صوب هذا الرجل الغريب الأطوار والعديم الأدب، على ما يبدو؟ ويُصدِر الحاضرون أصواتاً وتعابير تنم عن القرف والاشمئزاز والرعب، بينما تسمع من غيرهم ضحكات مكتومة. وأخيراً يأتي صاحب المطعم من مكتبه ويطلب من هذا الرجل مغادرة المطعم، قائلاً له أن مثل هذا التصرف المشمئز غير مُرحب به في هذا المطعم.

ولكن الأمر المدهش حقاً هو أن هذا الرجل نفسه لو كان يجلس في مطعم آخر يعكس الحضارة الصينية، فما كان أحداً من الحاضرين يستغرب تصرفاً كهذا، بل ما كانوا حتى يرمشون له أجفان عيونهم. بل أن المضيفة أو المضيف في المطعم كان سيصاب بخيبة أمل كبيرة لو أنك لم تفعل مثلما فعل هذا الرجل، وأنت تتناول الطعام عندهم. وفي الحضارة الصينية أيضاً، إذا كنت تسعى لمصافحة شخص لم تقابله من قبل، أو إذا انخرطت في الحديث عن الأمور العائلية أثناء تناول الطعام في المطعم، فستعتبر في نظرهم على أنك وقح وفظ وغير مهذب.

من المدهش كيف أن نفس التصرف يمكن ترجمته بطرق مختلفة تماماً، استناداً إلى نوع الحضارة التي ينتمي إليها الشخص، أو نوع النظرة التي ينظر بها الناس إلى الأمور بناءً على خلفياتهم وثقافاتهم المتنوعة. وهذه الحقيقة لا تختلف ولا تتغير بالنسبة لرؤيتنا للحضارتين المختلفتين، أي ملكوت الله في مقابل مملكة الشيطان.

للإيمان المسيحي أساس واحد هو المسيح يسوع. ومع ذلك فعندما نختبر المجموعات الكثيرة التي تندرج تحت اسم المسيح وتتخذه رباً ومخلصاً لها، نُصاب بالحيرة، لأننا سنجد العديد من التناقضات التي يمكن أن تتواجد بين هذه المجموعات التي لها الأساس الواحد. إن الرحلة إلى ملكوت الله تنطوي على نقل الثقافة ونقل رؤيتنا للعالم. وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب، يوجد وصف للصعوبة التي كثيراً ما تواجهنا ونحن نسعى لنتعلم كيفية التفكير في طرق السماء.

إن الصعوبات الأكبر في المسيرة المسيحية تتمحور حول الكيفية التي بها نتناول كلمة الله، أي الكتاب المقدس. فنحن نخرج من العالم الذي فيه تتلمذنا وتدربنا على الإنجاز والمركز، ولكن إذ نتحرك صوب ملكوت الله، يكون من المهم جداً أننا نُخضِع آراءنا الخاصة ونجعل روح الله يعلمنا كيف نقرأ كلمة الله. ومن المُحزِن أن هذا لم يكن هو الحال في كثير من الأحيان، وبالتالي فالعديد من التناقضات والهرطقات والنزاعات المتواجدة داخل الإيمان والتاريخ المسيحي، تأتي مباشرة من قراءتنا للكتاب المقدس في نطاق مضمون مبادىء الدوراسيل (التركيز على الذات والإنجازات)، عوض أن يكون في مضمون السماء الذي يركز على العلاقات الشرعية الحميمة.

وقد تناول المسيح هذه النقطة في حواره مع النامُوسيّ في الأصحاح العاشر من لوقا، حيث سأله النامُوسيّ: "ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له، ما هو مكتوب في الناموس، كيف تقرأ؟ (لوقا 10: 25 و26). لم يسأله المسيح، ماذا تقرأ، بل كيف تقرأ؟ أي كيف تفسر ما تقرأ؟ وذلك سؤال رئيسيّ لكل من يرغب في أن ينخرط في المسيرة أو الرحلة التي تَعبُر به من الدوراسيل الأرضية (مبدأ الذات) إلى العلاقات السماوية - كيف تقرأ؟

السؤال المختص بالحياة الأبدية الذي طرحه الناموسيّ على المسيح هو من بين أكثر الأسئلة حساسية وخطورة التي تنطوي عليها المسيرة المسيحية. إن المركز الذي تشغله والناس الذين تختلط بهم، هما مؤشران قويان لقيمتك في هذا العالم. وعلى نقيض ذلك، فإن كل شخص هو ابن لله في ملكوت السموات ويستحق الاحترام والكرامة. وإذ نتابع المُحاورة بين الناموسيّ والمسيح، نلاحظ أن الناموسيّ كان يريد تفسير الكتاب المقدس وفق المفهوم الأول وليس الثاني، أي أن قيمة الإنسان تأتي من المركز ومن الناس الذين نختلط بهم. وقد أعطى الناموسيّ للمسيح الجواب الصحيح إذ قال: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك. فقال له المسيح، بالصواب أجبت. افعل هذا فتحيا" (لوقا 10: 27 و28). ولكن الناموسيّ، إذ تحقق من التطبيقات والآثار الكاملة لِما كان متضمناً، سعى لتحريف المعنى بسؤاله التالي: "ومن هو قريبي؟" معنى الكتاب بسيط، ولكن القلب البشري الواقع تحت تأثير الدوراسيل يتظاهر بأنه لا يفهم المعنى لأنه غير مستعد ولا راغب في أن يتخلى عن القديم ويحتضن الجديد احتضاناً كاملاً. هنا يكمن السبب خلف حالة الفتور والذبول التي يبدو عليها العديد من المسيحيين. فهم يؤمنون بملكوت المسيح ولكنهم في الوقت ذاته يعيشون وفق مملكة الشيطان، والنتيجة هي التشويش والإحباط والشر.

يُصاب الإيمان المسيحي برمته بالحيرة والارتباك فيما يتعلق بموضوع الخلاص، لأن الكتاب المقدس يُعَلِّم بوضوح أن المسيحي المتسلح بالنعمة سيعيش حياة الوِئام مع الوصايا العشر. ومع ذلك فالعديد منا يتعاملون مع الوصايا العشر في نطاق ومضمون الدوراسيل. أي السعي لإنجاز

الوصايا وإتمامها في سبيل الحصول على هدف الخلاص، عوض أن نرى الوصايا العشر على أنها وصفاً للعلاقة الموعود بها بين الله وأبنائه.

ولكن على العكس من ذلك، وما هو أكثر شيوعاً، أن كثيرين جداً يرون استحالة الإيفاء بمتطلبات الناموس، ولكنهم عوض الدخول في علاقة الإيمان مع الله، يعلنون أنه لا يمكن حفظ وصايا الله. وبالتالي فهم لا يتمتعون بحرية النصرة في المسيح يسوع. وسواء سعيت أنت للإنجاز أو سعيت لعدم الإنجاز، فإن الموضوع يظل هو الإنجاز وليس العلاقة. وأعضاء الفريقين لن يدخلوا ملكوت السموات، ما لم يحتضنوا الوصايا العشر في مضمون العلاقة التي أساسها الإيمان بذاك الذي مات من أجلنا. وبالنسبة لفريق المسيحيين الذين يتبنون الموقف المناهض للآداء والإنجاز واستحالة النصرة في المسيرة المسيحية، فإنه سرعان ما يترتب على ذلك أن الإله الذي يعبدونه لا يقدر هو أيضاً على الإنجاز. وإذا ما جمعنا بين هذا الإتجاه وبين الرغبة الدنيوية في الحصول على الإعتراف والتقدير، فلن يكون مستغرباً عندئذ أن نجد علماء مسيحيين ومعلمين ومؤمنين، يرفضون قدرة الله على أن يخلق العالم في ستة أيام حرفية. تماماً مثلما أعطى الناموسيّ الجواب بأن عليه أن يحب قريبه، ولكنه بعد ذلك يتساءل: "ومن هو قريبي؟" كذلك يقول العديد من العلماء اليوم: "نعم، نحن نؤمن بأن الخليقة تمت في ستة أيام، ولكن ما نوع هذه الأيام؟" (أي كم طولها؟) يسعى الأشرار دوماً لإيجاد وسيلة لتحريف الكتاب المقدس لكي يتناسب معهم ومع شرهم. وبذلك هم يدَّعون الإيمان بالمسيح في حين أنهم يحيون وفق العالم. والشياطين أيضاً يؤمنون بالمسيح ويحيون ويتصرفون وفق هذا العالم، ("يؤمنون ويقشعرون").

حالما يفقد المرء إيمانه بالإله الحقيقي القادر على خلق القلب من جديد، ويبدأ في طرح أسئلة ماكرة حول عبارات الكتاب المقدس الواضحة، فسرعان ما يجد سهولة كبيرة في احتضان اللوطية (الشذوذ الجنسي) وقبولها على أنها المعيار أو النموذج المسيحي، مع رفضه لدور الذكر والأنثى (الرجل والمرأة) الذي أقره الله، في البيت وفي الكنيسة، ويضعه الكتاب المقدس أمامنا بكل وضوح. مثل هذه المفاهيم تعتبر غريبة على ملكوت السماء. فالقيمة والتقدير يأتيان دائماً من خلال العلاقة وليس من خلال المركز والرتبة.

ونستطيع أن ندرج العديد من التعاليم الكتابية التي تم تحريفها وتحويرها لتتناسب وتتوافق مع مبادىء القوة والمركز والإنجاز والآداء. ولكني أعتقد أن النقطة المُهِمة قد تم توضيحها بإسهاب وهي أننا إذا كنا نَدَّعي كوننا من أتباع المسيح، فعلينا إذاً السعي لتفسير الكتاب المقدس وفق مبادىء ملكوته وليس وفق مبادىء المملكة التي منها جئنا جميعاً.

16. ليس عبداً فيما بعد

كانت تلك بعض الأوقات الخاصة والمتميزة في حياتي. فقد كنت ذات مرة أسافر بالسيارة بصحبة ابني البالغ السادسة من العمر. وأثناء الرحلة كنا نتناقش ونتحادث في مواضيع عميقة المعنى، أي بعمق اختبار ابني الحبيب الصغير. وكنت بين الحين والآخر أستشعر استغراقه المنتظم في التفكير والتأمل فيما كنت أحادثه به. ولاحظت أنه كان على وشك أن يقول شيئاً مُهِمَاً بالنسبة له. وهذا ما حدث تماماً إذ أنه سرعان ما قال، وبشيء من الإندفاع: "أعتقد يا أبي، أن الأمور ستسير بشكل أفضل بكثير إذا مارست أنت أحياناً دور الزعيم أو الرئيس، وتَرَكتَ لي الدور في أحيانٍ أخرى". فقلت له وأنا أحاول أن أجد الكلمات المناسِبة ودونما تلعثم: "حسناً يا ابني العزيز، اقتراحك مثير للإهتمام حقاً". وساد الصمت بعض الوقت لأنني في هذه الأثناء كنت أفكر في سبب معقول وجيد على أن اقتراحه هذا لم يكن صائباً. وعلمت أنني إذا لم أتمكن من التفكير في سبب وجيه، فقد يقع كلينا في مأزق في نهاية الأمر. وأخيراً جاوبته بهدوء: "حسناً يا ولدي، ولكن اقتراحك هذا بتبادل الزعامة، لا يتفق تماماً مع ما يقوله الكتاب المقدس حول هذا الموضوع". فقال مسرعاً: "ولكن لماذا أنت الذي تقول لي دائماً ماذا أفعل أو لا أفعل؟" فقلت: "حسناً يا بُنَيَّ، المسيح هو الذي يطلب مني أن أعَلِّمك كيف تكون رجلاً قوياً في المستقبل وتقف صامداً له. ولأن المسيح هو رئيسي وزعيمي، فعليّ أن أفعل مايقوله لي وما يطلبه مني".

إشراف الوالدين على الأولاد هو منحنى مهم في التعليم الحقيقي:

"يا ابني، من فضلك أجلس أثناء تناول طعامك".

"يآه، هذا ليس إنصافاً".

"يا حبيبي، من فضلك التقط لُعَبَك من على الأرض وضعها في مكانها الخاص".

"يآه، يا أمي، إني أريد الآن الخروج لكي ألعب في الحديقة".

"يا ابني، حان وقت نومك". فيبكي الطفل ويصرخ: "ولكنكِ أنتِ لن تذهبي للنوم الآن، فلماذا أذهب أنا؟"

كل هذه القوانين والتعليمات وغيرها كثير. وربما يعتقد المرء أن الوالدين من خلالها يبدون دائماً مثل الغول أو مثل العملاق القوي. فلماذا لا يفهم الأطفال أنك تريدهم أن يجلسوا بهدوء

حول المائدة ويتناولوا الطعام ببطء حتى لا يُربِكوا معدتهم في عملية هضم ما يأكلون؟ أو أنك تريد منهم النظام والترتيب لكي يتعلموا الإنتظام والكفاءة عندما يتقدمون في العمر؟ ولماذا لا يُقَدِّر الأطفال مجهودك بتوفير الوقت الكافي لهم للنوم، للحيلولة دون إصابتهم بالمرض؟ لماذا – لأنهم ببساطة لا يعرفون بعد مخاطر الحياة ومزالقها الوعرة.

ويلتقط الرسول بولس هذا التشبيه ليوضح رحلتنا في الحياة المسيحية:

> "وإنما أقول ما دام الوارث قاصراً لا يفرق شيئاً عن العبد مع كونه صاحب الجميع" (غلاطية 4: 1).

يصف الرسول بولس هنا علاقة الطفل بوالديه على أنها لا تختلف عن علاقة الخادم بسيده. وعلى الأب أن يدرب ابنه في مبادىء ملكوت الله. ولكن الابن بطبيعته المتركزة في الذات (الدوراسيل) لا يفهم سبب كل هذا التدريب. والعديد من الدروس التي يُعلِّمَه إياها والده هي على نقيض طبيعته، وبالتالي فهي ستتطلب منه مجهوداً كبيراً في كثير من الأحيان، وستبدو له أنها لا تختلف كثيراً عن كونه عبداً أو خادماً. وقد يكون من السهل على الطفل أن يتساءل: "لماذا يمنعني والدي من القيام بالعديد من الأشياء التي أحبها وأريدها؟ إنني أشعر وكأنني عبد يرضخ للأوامر: "يا ابني افعل هذا، يا ابني لا تفعل ذلك، هذا لا يبدو عدلاً على الإطلاق".

هذا الوضع يصف تماماً معاملات الله معنا إذ يسعى لإعادتنا إلى ملكوته السماوي. وينظر كثيرون إلى متطلبات الله على أنها صعبة وصارمة. وكثيراً ما يتساءلون، "لماذا جعل الله هذا الشيء أو ذاك يحدث لي، أو لماذا تبدو الحياة المسيحية مليئة بالقيود؟" كما يوجد أيضاً الكثير من الناس الذين ينضمون إلى الكنائس ويبدو أنهم راضون وقانعون بأن يبقوا مثل الأطفال ويكونون مجرد عبيد، ويؤدون واجبات الحياة المسيحية على أمل أنهم سينالون المكافأة على المجهودات التي بذلوها. مثل هؤلاء الأشخاص هم في خطر التشبع بمشاعر الأخ الأكبر في قصة الابن الضال.

ويوضح لنا الرسول بولس كيفية التحرر من العديد من مُربكات الحياة وحيرتها والتساؤلات المتعلقة بمعاملات الله معنا. عندما نفهم حقاً ونستوعب أن الله أبونا وأنه يَعِدنا بدخول ملكوته، ويحبنا بشدة، عندئذ فعلاقتنا بالله يصبح لها معنى. ولا نعود نرى في القوانين والتعليمات قيوداً وحدوداً تمنعنا من الاستمتاع بما نريد، بل عوضاً عن ذلك تصبح هذه التعليمات بمثابة بوابات الحرية التي تكشف لنا اهتمام الله بنا واعتباره الرقيق لنا ورغبته الشديدة أن يُسلِّمنا ميراثنا الكامل بوصفنا أبناء الله. ويُفسر الرسول بولس هذا الأمر على النحو التالي:

> "هكذا نحن أيضاً لما كنا قاصرين كنا مستعبدين تحت أركان العالم. ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من إمرأة، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني. ثم بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب. إذاً لست بعد عبداً بل ابناً، وإن كنت ابناً فوارث لله بالمسيح" (غلاطية 4: 3-8).

تلك من أجمل كلمات الكتاب المقدس، فإذ ندرك ونعترف بذبيحة المسيح ليوفر لنا التبني كأبناء لله، نتحرر عندئذ من عبودية مملكة الشيطان ومن ديكتاتورية مبدأ الدوراسيل، ونقف في ملء القوة والنبل بوصفنا أبناء وبنات الله ومتيقنين أنه بفضل ما عمله المسيح سنكون نحن دائماً أبناءه المحبوبين. فهل هتف روح الله في قلبك قائلاً: "يا أبا الآب" (أي يا أبي يا أبي)؟ وهل تشعر بالأمان التام في محبته بحيث يمكنك الإرتماء بين ذراعيه عالماً أنك لست موضع ترحيب

وحسب، بل ومرغوب فيك بشدة؟ وهل عدت إلى العشق الطفولي لأبيك السماوي الذي يجعل وجهك وملامحك تشع عندما يكون قريباً منك؟ ما لم تختبر هذه الحرية فستبقى دائماً عبداً يعيش في حالة قلق وعدم اليقين مما إذا كنت في الغد ستنال مكافأة خدمتك أم ستُفصل من العمل.

ميراثنا مضمون بوصفنا أبناء الله، ونستطيع أن نأتي إليه بثقة وجرأة ونقدم له طِلباتنا واثقين بأنه يعلم ما هو أفضل لنا. كل ما ينتابنا في الحياة إنما هو لمساعدتنا على النمو صوب تفهم أعمق لقيم ملكوت الله وللتحرر من عبودية مبدأ الدوراسيل.

ولعلك، قارئي العزيز، تتذكر ما ناقشناه في الفصل السادس عن المهمة الباهظة الصعوبة التي واجهها الله في سعيه لإرجاع البشرية إلى أحضانه الحانية والمُحِبَّة. وإليك موجز بالنقاط التي وردت هناك:

1. وسيلة لإعطاء الجنس البشري الحكمة ليدركوا عن حق وعن فهم صحيح، حالتهم الميؤوس منها، مع إتاحة الفرصة لكي يتأثروا في الاتجاه الصحيح من دون انتهاك حرية اختيارهم.

2. طريقة تبين لهم أنهم قد احتضنوا تصوراً خاطئاً لصفاته، تعالى، ولملكوته، وأن يُظهر لهم بطريقة أو أخرى بأنه يحبهم حقاً.

3. طريقة بها يزيل شعورهم بالذنب وانعدام الأمن، وأن يعيد لهم قيمتهم وهويتهم الحقيقية بوصفهم أبناء الله.

4. طريقة بها يستعيدون إحساسهم بهدف الحياة وسبب وجودهم أو مصيرهم.

5. كل ما تقدم من نقاط كان بحاجة إلى وقت. لقد خسر آدم وحواء حياتهما، وبالتالي احتاجا إلى نظام دعم للحياة لمنحهما الوقت ليقررا ويختارا.

6. وبينما الله يفعل كل ذلك، كان عليه الحِفاظ على العدالة. فهو لا يستطيع تجاهل تمردهما ويقول أن كل شيء على ما يرام. فرغم أن الله في رحمته لم يسمح بالعواقب الكاملة لاختيارهما أن تقع عليهما، إلا أنه كان ما زال على آدم وحواء أن يتذوقا طعم نتائج اختيارهما لدفعهما للبدء في تقدير فداحة الخطأ الذي اختارا فعله.

إن ما أنجزه المسيح بخدمته وموته وقيامته، قد وفر الحل للتحديات الستة التي ذكرناها آنفاً. فمن ذا الذي يستطيع استيعاب قوة صليب المسيح؟ فما أنجزه المسيح هو أوسع وأعمق بكثير من مجرد إزالة أفعالنا الخاطئة – أوسع وأعمق بكثير جداً.

أفلا تركع الآن وتتطلع إلى الصليب لترى تحررك الكامل من مبدأ الدوراسيل؟ ألا تسمع الصوت من السماء يؤكد لك أنك ابنه الحبيب الذي يعتز بك؟ أفلا تزيح عن كاهلك كل ذنبك وإستيائك وكبريائك وشعورك بالمرارة، وتلقيها كلها عليه؟ اترك فقط المجال لملء فرحه أن يغمر نفسك الآن. وأنت تستطيع ذلك، إن لم تكن قد قمت بذلك بالفعل. إن سر الهروب من مبدأ الدوراسيل هو ألا تظل عبداً بل ابناً لله.

17. سقوط بابل

حدث الأمر في لمح البصر وكأنه البرق الذي يومض فجأة عبر الأفق. فقد تسابقت الفرق العسكرية النازية وانقضَّت على كل من هولندا وفرنسا، وأسرعت لتحتل أراضيهما. وفي ليلة واحدة أصبحت الدولتان تحت القبضة الحديدية لآلات ومعدات الحرب النازية. والعيش في بلد تحت الإحتلال هو تجربة تجعل صاحبها يذبل وينزوي. وقد عاش والدي أثناء تلك الحقبة في مدينة آسن بشمال هولندا.

لقد مورس الضغط والإرغام على الرجال لكي يخدموا تحت آلة الحرب الألمانية. وكان المخبرون السِّريون على أُهبة الاستعداد لإبلاغ المسؤولين الألمان عن أي شخص يحاول التهرب من نداء الإنضمام لصفوف الألمان المحاربين. وتوقع المواطنون والسكان أنه في أي وقت يمكن للمخبرين السريين أن يطرقوا أبواب بيوتهم ليسحبوا أحد أقربائهم أو ابناً أو زوجا لهم إلى الحرب ولا يعودون ليروه ثانية. فقد أظهر النظام النازي وعَبَّر عن كافة بصمات وسِمات مبادىء الدوراسيل، أي روح السيطرة التي تسعى للقضاء على كافة المنافسين والمقاومين، وفرض الحكم المستبد من خلال نشر الرعب والخوف، واستعراض قوتها وبطشها بارتياح وحشي.

وإذ جُرِدَت هولندا من مواردها واستُنزِفت قواها وأُنهِكت طاقاتها من جراء القيود القمعية التي كان عليها الإلتزام بها، وجدت نفسها غير مستعدة لمواجهة شتاء سنة 1944. فالسكان لم يستطيعوا ترك منازلهم لجمع الخشاب وفروع الأشجار خوفاً من أن يعودوا إليها فلا يجدوا لها أثراً لأن الألمان يكونوا قد اقتلعوها واستخدموا خشبها لإيقاد النار للاستدفاء من الصقيع القارص البرودة. وقد مات آلاف السكان في المدن من جراء الجوع والبرد. فإلى متى سيستمر هذا الكابوس المزعج؟

وأخيراً تراجع الألمان أمام ضربات قوات التحالف المتتالية، ونسفوا خلفهم الجسور، ودمروا الذخائر، تاركين وراءهم أكبر دمار استطاعوا إحداثه. ولا زال والدي يتذكر كيف خرج كل السكان ليرقصوا في الشوارع، وكيف كان جنود التحالف يوزعون حصص الطعام على الجميع. كان الأمر يبدو أصعب مما يصدق بأن الحرب قد حُسِمَت، وأن الألمان قد دُحِروا عن هولندا. وها هم السكان يشعرون بالحرية أخيراً.

ما زالت روح قايين المتمردة تطل برأسها وتُظهر ذاتها. ويُبَيِّن سفر الرؤيا أنه قبل عودة المسيح مباشرة ستعمل هذه الروح المُستبدة ذاتها، والمُسَيطرة وغير الآمنة والمشحونة بالغيرة والتفاهة،

ستعمل على القيام باستعراض أخير لقوتها، قبل أن يتم تدميرها نهائياً. ويصف يوحنا الرائي هذه القوة في صورة وحش يخرج من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون.

> "ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان، وعلى رؤوسه اسم تجديف" (رؤيا 13: 1).

أُعطيَت لهذا الوحش قوة عظيمة وسلطة على كل أمم الأرض، والجميع يسجدون ويخضعون لقوة الوحش (رؤيا 13: 2 و3). هذه القوة الوحشية تقف في وجه علاقتنا مع الله الذي خلق السموات والأرض. إنها تسعى لجذب عبادة الناس لنفسها.

السبب الذي يجعل من السهل على هذا الوحش أن يُقنع العالم كله باتباعه، هو أنه يتبنى مبادىء الدوراسيل التي تديرها البطاريات. فهو يتحدث اللغة التي نتحدث نحن جميعاً بها بشكل طبيعي. ويشجعنا على أن نسعى لإثبات هويتنا من خلال إنجازاتنا وأعمالنا. كما يدفع بنا لأن نتقابل مع الله بناءً على شروطنا الخاصة، ومُقدمين تقدماتنا الخاصة عوض الذبيحة التي أمر بها الله، ومتوقعين رغم ذلك أن يمتثل لنا الله ويقبل عبادتنا. معظم سكان العالم أصبحوا الآن تحت سيطرة قوة ذلك الوحش دون أن يدروا. فعندما يرفض العالم مبادىء الحرية ويجنح صوب العودة إلى السيطرة العالمية من خلال إثارة الخوف والبطش، فسيكون ذلك ببساطة هو المظهر الخارجي لما يكمن عميقاً في قلب كل منا.

الله لا يجلس مكتوف الأيدي دون أن يفعل شيئاً، بل هو يرسل رسالة مُلِحَّةٌ وأخيرة لتحذير العالم بعدم الخضوع لهذه القوة الوحشية. وإنذار الله هذا يأتي في صورة ثلاث رسائل. الأولى منها تدعو الجنس البشري إلى الإهتمام، وتذكرنا بضرورة التعبد لله الذي خلق السموات والأرض. وتوجِهنا إلى ذبيحة المسيح وتضحيته، وبالتالي تُذَكِّرنا أن تقدمة قايين لا يمكن أن يقبلها الله. فنحن لا نستطيع أبداً أن نكسب رضى الله بأعمالنا وإنجازاتنا، لأن خلاصنا اشتراه لنا المسيح حمل الله، بدمه المسفوك من أجلنا (رؤيا 14: 6 و7).

يُذَكِّرنا الله إذاً بكل حق مهم، ويضع هذا المُذَكِّر في الصورة التالية:

> "ثم تبعه ملاك آخر قائلاً، سقطت سقطت بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها" (رؤيا 14: 8).

لماذا يستخدم الله التعبير، "بابل"؟ إذ ننظر عبر صفحات الكتاب المقدس نجد أن نمرود هو الذي بنى مدينة بابل. ونمرود هذا كان شخصية مؤثرة. ويقول الكتاب المقدس ما يلي عنه: "وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكَّدَ وكَلنَةَ في أرض شِنعار (تكوين 10: 10). ونمرود هو أول إنسان يؤسس مملكة له. ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أن نمرود تزوج والدته في مرحلة ما. فهي أسرة مختلة في الواقع. ويقترح البعض أن نمرود قتل والده ليتزوج أمه. مهما كان الأمر فإن بيت نمرود لم يتأسس على مبادىء ملكوت الله، حيث العلاقات العائلية مقدسة.

كان شعور نمرود بعدم الأمان في حياته المنزلية، كبيراً جداً لدرجة أنه صار يُعرف من خلال أعماله وإنجازاته، عوض أن يُعرف من خلال انتمائه. وفي الأصحاح العاشر من سفر التكوين نجد قائمة بسلسلة نسب الجنس البشري. وكل إنسان كان يُعرف من خلال معرفتنا بمن كان والده. وهويتهم كانت تتأكد وتترسخ من خلال علاقاتهم الأسرية. وتلك هي الطريقة التي من خلالها يُدار ويعمل ملكوت الله. وعلى أي حال، فقد اشتهر نمرود على أنه صيّاد جبار وحاكم مغوار.

"الذي كان جبار صيد **أمام** الرب (وكلمة "أمام" في الأصل، تعني أيضاً "ضد"). لذلك يُقال كنمرود جبار صيد **أمام** (ضد) الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وأَرَكَ وأَكَّدَ وكَلنَة في أرض شنعار. من تلك الأرض خرج أشور وبني نينوى وَرَحُوبُوت عَيرَ وكَالَح ورَسَنَ بين نينوى وكَالَحَ، وهي المدينة الكبيرة" (تكوين 10: 9-12).

ونمرود إذ كان مدفوعاً بشعوره بعدم الأمان، أحسَّ بحاجته إلى إثبات ذاته. ولهذا ابتدأ في بناء المدن، ثم في تكوين الجيوش لغزو عائلات القبائل المجاورة وإخضاعها. ويقول في ذلك أحد المؤرخين البارزين ما يلي:

"سلطة الحُكَّام السابقين كانت ترتكز على الشعور بالنَسَب والعَشِيرة. وسيادة الرئيس كانت صورة تعكس سيطرة الوالدين. ولكن على عكس ذلك، كان نمرود سيداً على الأرض والمِسَاحات، وبالتالي على البشر طالما أنهم كانوا ساكنين في تلك الأراضي، بغض النظر عن الروابط والانتماءات والعلاقات الشخصية. وكانت حتى ذلك الحين توجد قبائل ذات امتداد واسع – عائلات – مجتمع؛ والآن أصبح هناك أُمة، مجتمع سياسي". [10]

ونجد اليوم أن العالم كله تقريباً يسير الآن في إثر خطوات نمرود. والحكومات أصبحت سياسية وإقليمية، وليست قَبَلِيَّة أو بدوية. وجدير بنا أن نلاحظ الخطوات التي اتبعها نمرود لتشييد ذلك النظام على أساس الدولة السياسية. وقد وصف الله هذا النظام كله باسم أول مدينة بناها نمرود، التي كانت تُدعى بابل. لاحظ جوهر تطور بابل في قلوب البشر وكيفية حدوث ذلك:

1. تبدأ في الأطفال الذين انفصلوا وأُبعِدوا عن آبائهم.

2. ثم وبسبب عدم الأمان الناتج عن ذلك، يسعى أولئك الأطفال دائماً للحصول على الموافقة والقبول.

3. هذا التشوق للموافقة والقبول، غالباً ما يدفع أولئك الأشخاص إلى تدابير يائسة لتعويض الفراغ والتفاهة التي يشعرون بها.

ذلك هو المُكَوِّن السري الذي يُحَوِّل خمر بابل إلى الإدمان. ومن منا لم يعانِ من مشاعر عدم الجدوى والتصميم لنُثبت للآخرين أن لدينا ما يلزم وأننا قادرون على هذا أو ذاك الأمر؟ وكم منا شعر بأن جهودنا لإرضاء الله باءت بالفشل الذريع، وأنه ليس هناك من جدوى من تكرار المحاولة؟ وكم منا قد انخرط في صراع على السلطة في المدرسة أو في مكان العمل أو في الكنيسة، وسمعت أو تفوهت بكلمات غاضبة جارحة كوسيلة للدفاع عن النفس، أو في محاولة لتوسيع ممالكنا الخاصة الصغيرة؟ ألا يتجرَّع العالم كله من هذه الكأس؟ فإذا تصرفنا نحن بهذه الطريقة أفلا نكون بالحقيقة عبيداً لبابل؟

فما معنى سقوط بابل إذاً؟ العبارة، "سقطت بابل"، تأتي مباشرة من إرميا 51: 8، وتجد مضمونها في إرميا 50 و51.

---

[10] آ. ت. جونز، إمبراطوريات الكتاب المقدس، ريفيو آند هيرالد للطبع والنشر، سنة 1904، صفحة 51

يصف الله شعبه في إرميا الأصحاح الخمسين على أنهم خراف ضالة، أضلهم آخرون، وقد نسوا مكان راحتهم. وشعب الله تم أسرهم بالفعل بواسطة بابل، والعديد منهم نسوا بيتهم الحقيقي، مكان راحتهم.

ولكن الله لم ينسَ أولاده، بل يقدم لهم الوعد الجميل التالي:

> "هكذا قال **رب** الجنود إن بني إسرائيل وبني يهوذا معاً مظلومون وكل الذين أسكوهم أبوا أن يطلقوهم. وَليُّهم قوي، **رب** الجنود اسمه. يقيم دعواهم لكي يريح الأرض ويزعج سكان بابل" (إرميا 50: 33 و34).

ثم نقرأ ما يلي في أصحاح 51:

> "اهربوا من وسط بابل وانجوا كل واحد بنفسه. لا تهلكوا بذنبها، لأن هذا زمان إنتقام **الرب**، هو يؤدي لها جزاءها. بابل كأس ذهب بيد **الرب** تُسكِر كل الأرض. من خمرها شربت الشعوب من أجل ذلك جُنَّت الشعوب. سقطت بابل بغتة وتحطمت. ولولوا عليها. خذوا بلساناً لجرحها لعلها تُشفى. داوينا بابل فلم تُشفَ. دعوها ولنذهب كل واحدٍ إلى أرضه لأن قضاءها وصل إلى السماء وارتفع إلى السحاب. قد أخرج **الرب** برنا. هلم فنقصَّ في صهيون عمل الرب إلهنا" (إرميا 51: 6-12).

نجد في مضمون هذا الأصحاح أن شعب الله قد تم أسرهم بواسطة بابل التي أضلتهم. ولكن الله سينقذهم، ليس لأنهم يستحقون، بل لأنهم أولاده.

رغم أن التعبير، "سقطت بابل"، هو كناية عن الدينونة والإدانة، إلا أنه في الوقت ذاته وعد بالحرية لإسرائيل، لأن بابل قد أبقت إسرائيل في الأسر.

سقوط بابل المتضمن في رسالة الملاك الثاني، يُحرر إسرائيل الروحي من إنعدام الأمن والتفاهة، ومن الروح التي تدفعنا لارتكاب الخطية. وعندما ندرك ونعترف أننا مقبولون في المحبوب، وأننا بالفعل أبناء الله من خلال ذبيحة المسيح، تتبدد كل مشاعر إنعدام الأمن والتفاهة، ونقف أحراراً بوصفنا أولاد الله.

يُطلَقُ أيضاً على رسائل الملائكة الثلاثة لقب، "رسالة إيليا"، وليس من قبيل الصدفة أن الجزء الأخير من هذه الرسالة في ملاخي 4: 6، يُصرِّح بأن الله سيُحول قلوب الآباء إلى الأبناء والأبناء إلى الآباء. أي أن قوة هذه الرسالة ستتفجر وتنطلق عندما نؤمن أننا أبناء الله ليس بفضل أي شيء أنجزناه، بل بفضل ما فعله يسوع وحده من أجلنا.

اهجر بابل ومبادئها – مبادئ الدوراسيل، ولا تظل عبداً، بل اهتف قائلاً: "يا أبا الآب". وتأكد من أنك بالفعل ابنه المحبوب. فمن خلال المسيح وحده وبفضل استحقاقه، نحن بالحقيقة أحرار.

إن كتاب "الصراع على الهوية" هو رحلة من اكتشاف الذات، وهو دعوة من الكاتب كي تتعرف على قيمتك وذلك في إطار علائقي صِرف.

إن حياتنا تتعرَّض لوابل من الرسائل المستمرة التي تخبرنا أن النجاح يأتي فقط من قدرتنا على أن نثبت لأنفسنا وللعالم أننا نمتلك المقومات أو الصفات اللازمة لتحقيق ذلك النجاح. إنه نظام يعلمنا أن نشعر بالقيمة والأهمية فقط عندما يكون الآداء الذي نؤديه أو الإنجاز الذي ننجزه وفقاً لمستوى أو معيار معين. إلا أن كافة الدلائل والبراهين تؤكد لنا أن النتائج المترتبة على هذا النظام ليست جيدة. فملايين الناس يعانون من الاكتئاب، والمئات كل يوم يواجهون اليأس وفقدان الرجاء.

أدعوك أن تتعرَّف على الطبيعة الحقيقية للحرب التي نخوضها – حرب هوية لما يحدد قيمتنا وأهميتنا. المخاطر كبيرة والرهانات عالية لأن الأمر هو مسألة حياة أو موت. يحتوي هذا الكتاب على رحلتي والمبادئ التي تعلمتها على طول الطريق. إن الحرية هي أمرٌ نسبيٌ، إلا أن هذا الكتاب يسجّل طريقي إلى الحرية.

أدريان إيبنز

fatheroflove.info